مشاهير قادة العالم



المارشال بيجو
١٧٨٤ - ١٨٤٩

تأليف

بسام العسلي

المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر

مشاهير قادة العالم

المارشال بيجو

١٧٨٤ - ١٨٤٩

تأليف
بسام العسلي

المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر



المارشال بيجو

١٧٨٤ - ١٨٤٩

BUGEAUD DE LA PICONNERIE ,
THOMAS .ROBERT

(DUC D'ISLY)

تأليف
بسام العسلي

المؤسسة العربية
للدراسات والنشر

بناية برج الكارلتون ـ ساقية الجنزير ـ ت ٨٠٧٩٠٠/١
برقيا موكيالي بيروت ـ ص.ب: ٥٤٦٠/١١ بيروت

الطبعة الثانية
١٩٨٢


GENERAL BOURBAKI, COMMANDANT LA GARDE IMPERIALE.

المارشال بيجو ١٧٨٤ - ١٨٤٩

المقدمـــة

تمخضت الثورة الفرنسية عن ولادة روح جديدة هيمنت على الشعب الافرنسي، وهي روح (البحث عن العظمة) و(المجد) وهي روح أبرزتها مجموعة الحروب النابوليونية في اطار (تصدير الثورة) ونقل لهيبها الى الأقطار الأخرى. غير أن الطموحات النابوليونية انتهت بمأساة نزلت على رأس نابليون وبكارثة نزلت بالشعب الافرنسي. ومع هذا فان روح (المجد العسكري) لم تخمد جذوتها بالرغم من ذلك. وجاءت الانظمة المتتالية (الملكية ثم الجمهورية الثانية ثم الامبراطورية) فحاولت كلها تثبيت أوضاعها بانتصارات خارجية تحقق في الوقت ذاته متطلبات الثـورة الصناعية المتعاظمة. ولما كانت ساحة أوروبا عاجزة عن حل هذه المشكلة ـ وفقاً للتجربة النابوليونية ذاتها ـ . ولما كانت فرنسا قد خرجت من حروب الثورة وهي مجردة من مستعمراتها ـ فيما وراء البحار، بعد أن أجهزت البحرية البريطانية على بقايا النفوذ الاستعماري الافرنسي فيما وراء البحار. فقد اتجه التفكير الاستعماري الافرنسي للسيطرة على أكثر المواقع قرباً من فرنسا، فكانت الجزائر هي البلد الذي وقع عليه الاختيار. وكان

لفرنسا ما يغريها للاقدام على هذه الخطوة: ألم يحاول نابليون الوصول الى المشرق الاسلامي لاخضاعه؟... ثم هل تستطيع الدولة العثمانية المشتبكة في صراع داخلي مع محمد علي باشا والي مصر ومع القوات الروسية في الشمال أن تدعم الجزائر وأن تحميها على نحو ما كانت تفعل من قبل؟ ثم ألم تدمر معركة (نافار) الاسطول العثماني فبات من الصعب على الدولة العثمانية ارسال أي دعم للجزائر في حالة مهاجمتها؟.

وبدأت المؤامرة، صحيح أن فرنسا كانت ترتبط - تقليدياً - بعلاقة جيدة مع الامبراطورية العثمانية. غير أن الموقف الدولي قد تغير وبات من الصعب على العثمانيين المسلمين مجابهة كل الدول بالعداء. وتبقى المصلحة هي الحكم في كل العلاقات الدولية، ومن مصلحة فرنسا أن تضع يدها على الجزائر. هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية فصداقة محمد علي الالباني - حاكم مصر - مع فرنسا، تشكل عازلاً عن كل اتصال بري بين مشرق العالم الاسلامي ومغربه، مما يضمن لفرنسا عزل مسرح العمليات براً وبحراً.

ولم تعدم فرنسا الذريعة المناسبة، فقضية القرصنة هي قضية يمكن استخدامها دولياً بعد رفض الجزائر لمقررات فيينا (سنة ١٨١٥) والتي لم تشترك بها الجزائر أو توافق عليها. كما أن (قضية الديون) تشكل ذريعة ثانية بعد أن تطورت هذه القضية الى (مروحة دوفال). وعلاوة على ذلك، فان العدوان على بلد اسلامي يشكل ذريعة مناسبة أمام الصليبيين المتعصبين. وكان العدوان على الجزائر في (٥ حزيران - يونيو ١٨٣٠). وسقطت مدينة الجزائر بعد معارك غير متكافئة، غير أن الجزائر المجاهدة لم تستسلم، ففي المشرق، كان باي قسنطينة يقود المقاومة بكفاءة ضد الغزاة البرابرة وفي المغرب كان الامير عبد القادر قد شرع في قيادة الكفاح المسلح ضد (أعداء الدين) وأعداء (الوطن الجزائري) وأصيبت الادارة الافرنسية بخيبة أمل مريرة، فلم يستسلم الشعب المجاهد بسرعة كما كان متوقعاً، وبات من الموقع أن تتعاظم المقاومة يوماً بعد يوم.

هنا ظهرت مجموعة من أسماء القادة الافرنسيين الذين خاضوا معاركهم باساليب مختلفة وعجزوا عن اخماد المقاومة. حتى اذا ما جاء (الجنرال بيجو) انتهـج اساليب جديدة في المجالين السياسي والعسكري حتى أمكن له تفتيت المقاومة مادياً ومعنوياً والاجهاز عليها والتوغل باقدام الاستعمار الى اعماق الجزائر وتثبيت وجوده. وكافأت فرنسا بطلها بمنحه الالقاب (ماريشال فرنسا، ودوق ايسلي).

لم تكن هذه ـ على كل حال ـ هي المرة الاولى التي يبرز فيها اسم (بيجو) في قمع الحروب الثورية وقهر الشعوب، فقد اشترك من قبل، وفي عهد نابوليون بونابرت، في قمع ثورة الشعب الاسباني، وكان ذلك سبباً في ترفيعه بسرعة مذهلة الى رتبة عقيد ـ كولونيل ـ ثم جاءت العملية الثانية في الجزائـر فحقق فيها بقية مطامحه.

لقد خرج (بيجو) من تجربته العسكرية في قمع ثورات المستعمرات بنظريات محددة، غير أن هـذه النظريـات تصلح للحرب المحـدودة وللحروب الثورية، أكثـر مما تصلح للحروب الشاملة. (مثل الاعتماد على الارتال الضاربة الخفيفة، وتجزئة القوات، وعزل مسارح العمليات، وخوض الحرب التشتيتية الخ...). ولكن الأهم من ذلك هو اعتماده على اساليب مفرطة في القسوة والتطرف ـ الوحشي ـ مما لا يتناسب وقوانين الحرب وأعرافها.

\لقد اعتبر المؤرخون (الماريشال بيجو) بأنه (عبقرية عسكرية) وأنه (واحد من أساطين الاستعمار العالمي). والصفة الأولى مشكوك بها، وفقاً لما سيبرزه البحث، أما الصفة الثانية فمؤكدة ولا مجال لمناقشتها. وتبقى بعد ذلك (تجربة الماريشال بيجو) تجربة تاريخية تستحق التأمل طويلاً، وتستحق التذكر باستمرار ـ حتى لا ننسى ـ ان كان هناك مجال للنسيان، الدروس المستخلصة من التجربة الذاتية لامتنا الاسلامية ـ العربية.

بسام العسلي

الوجيز في حياة المارشال بيجو

١٧٨٤ - ١٨٤٩

١٧٨٤ ولادة بيجو في مدينة ليموج

١٧٩٣ القي بوالده في السجن ـ اثناء الثورة الافرنسية ـ لأنه من نبلاء بيريغورد.

١٧٩٦ توفيت والدته ذات الأصل الايرلندي. فأخذته اخوته للعيش مع فلاحي (دوردونيو)

١٨٠٦ عين برتبة ملازم ثاني في حرس نابليون الامبراطوري.

١٨١٤ انضم الى الملكيين بعد هزيمة نابوليون.

١٨١٥ عاد فانضم الى نابليون أثناء فترة حكم المائة يوم.

١٨١٥ أحيل على التقاعد وهو برتبة عقيد بعد عودة الملكية ونفي نابليون.

١٨٣٠ اندلعت الثورة، واعيد بيجو لاستئناف خدمته في الجيش.

١٨٣٣ استطاع الحصول على ثقة لويس فيليب، وأصبح من المقربين في البلاط.

١٨٣٤ تمكن من القضاء على اعمال الشغب التي اجتاحت باريس.

١٨٣٦ ارسل الى الجزائر، فأسهم في القضاء على الثورة في (سيكاه).

وانتقد اساليب القادة الافرنسيين في محاربة المسلمين الجزائريين.

١٨٣٧ عقد معاهدة (تافنا) مع الامير عبد القادر حتى يتفرغ لحرب باي قسنطينه. ثم رجع الى فرنسا.

١٨٤١ عاد الى الجزائر، فنظم عملية اجتياح الجزائر واكمال فتحها.

١٨٤٣ منح لقب مارشال فرنسا مكافأة له على خدماته في الجزائر.

١٨٤٤ انتصر على الأمير عبد القادر ، في معركة ايسلي. ومنحته الحكومة الافرنسية لقب دوق ايسلي مكافأة له. وعاد الى فرنسا.

١٨٤٥ أعادته الحكومة الافرنسية للجزائر من اجل الانتقام من ثوار سيدي ابراهيم.

١٨٤٦ اعيد (بيجو) الى فرنسا.

١٨٤٧ اعيد من جديد الى الجزائر، غير انه لم يلبث ان استقال بسبب عدم موافقة الحكومة الافرنسية على مخططاته.

١٨٤٨ انفجرت ثورة باريس، وقاد بيجو جيش لويس فيليب، غير انه عجز عن انقاذ العرش.

١٨٤٨ كلفته حكومة الجمهورية الثانية بقيادة (جيش الالب) فقبل هذا التكليف. وقام بنشر عدة نشرات ضد الاشتراكية.

١٨٤٩ في (١٠) حزيران ـ يونيو مات بمرض الكوليرا.

«لا يمكن للمجد العسكري الذي ناله - بيجو - أن يغفر للرجل كونه نذلاً»

ادوارد - كات

الفصل الأول

١ - موقف تاريخي.
٢ - بيجو - والمأزق الاستعماري.
٣ - بيجو - والسياسة الاستعمارية.
٤ - معاهدة تافنه.
٥ - قراءة في المعاهدة.
٦ - الطريق الى الحرب.
٧ - مفاهيم مضيق البيبان. ونتائجها.
٨ - مفاهيم (بيجو) ومخططاته.
٩ - استئناف الحرب.
١٠ - بيجو ينقل الصراع الى المغرب.
١١ - الصفحة الأخيرة من حياة بيجو في الجزائر.

١ ـ موقف تاريخي.

غادر الجنرال (بيجو) معسكره في (تافنه) في الساعة السادسة من صباح اليوم الأول من حزيران ـ يونيو ـ ١٨٣٧ . وتوجه مع أركان حربه الى المكان الذي عين للالتقاء، وقد صحبته إليه ست فرق من المشاة وخيالته ومدفعيته. لقد أعد (بيجو) عدته، واتخذ ترتيباته حتى يستقبل خصمه استقبالاً عسكرياً، يأمر فيه بعزف الموسيقى واطلاق نيران المدافع تحية له. ولهذا، أمر عند وصوله الى المكان المحدد الذي انتصبت فيه أشجار صغيرة من النخيل البري و(المصصكاء) بأن تتخذ قواته مواقع مهيبة. وكان هدفه من هذه التظاهرة العسكرية ارهاب خصمه الذي ينتظر لقاءه... غير أن انتظار (بيجو) طال أمده، وانقضت ساعات في ظلال شمس حزيران ـ يونيو ـ الدافئة، على أرض الجزائر اللاهبة، وأدى الانتظار الى الملل، ولما يظهر أي دليل يشير الى احتمال اقتراب هذا الخصم الذي فرغ صبر (بيجو) في ترقبه، ووصل في آخر الأمر شيخ عربي، قيل إنه وزير الأمير عبد القادر الجزائري، وسلم رسالة من أميره الى الجنرال (بيجو).

ففتح الجنرال الرسالة، وعندئذ اقترب منه ضباط هيئة أركانه ومرافقوه، وازدحموا حوله بدافع الفضول، وبعد أن تلا عليه ترجمانه (رمزي) وهو سوري الأصل محتواها، قطب الجنرال حاجبيه، ثم التفت الى الترجمان قائلاً: «**قل للوزير بأني تعبت من هذه المماطلات. أخبره بأني ليس معي سوى نصف جيشي، ومع ذلك فاننا ندعو أميره الى خوض معركة ضدنا**». وبعدئذ وثب (رمزي) والوزير فوق فرسيهما، وأسرعا الى الأمير (عبد القادر) لينقلا إليه هذا الجواب الذي يتوعده فيه. وكان الأمير قد سأل في رسالته عن أسعار الأسلحة والذخيرة التي وُعد بها. وقد ألح هو وقادته في هذه النقطة ضمن شروط المعاهدة التي سيتم ابرامها بين الطرفين (الجزائري والفرنسي). وعبروا عن رغبتهم فيها بكل صراحة. وهذا وحده كان ينبغي أن ينبه الجنرال (بيجو) الى حقيقة نوايا الأمير ومشاريعه. فالخصم الذي يطلب عند عقد المعاهدة تزويده بالأسلحة والذخيرة، لا ينوي بالتأكيد أن يكون جاداً في ميله الى (سلم الاستسلام). وطلبه يدل على العكس من ذلك، على أنه يستعد لحرب جديدة. والجنرال (بيجو) أذكى من أن يجهل عواقب المعاهدة، إلا أنه كان يعرف أنه قد تجاوز الحد في تصرفاته، وأن الوقت المناسب للحرب قد انقضى في أثناء المفاوضات، وأن المؤن على وشك الانتهاء. وكان يعتقد أن أمره سينكشف، كما أنه كان يخشى حملات الصحافة المعادية، إذا هو عاد إلى (وهران) من غير أن يحارب، ولا أن يبرم المعاهدة مع الأمير، ودون أن يحقق شيئاً من أهداف الحملة التي سبقتها دعاية كبيرة. وهكذا، بات مستعداً للتضحية بجميع الاعتبارات الكبيرة حتى يوفر على نفسه الفضيحة. ومرت الساعات، وانحدرت الشمس نحو الغروب، ولما يظهر أي رد فعل عن الأمير ـ حتى الترجمان تأخر عن العودة ـ وحاول الجنرال (بيجو) اخفاء امتعاضه وتبرمه وضيقه، بينما كان الضباط يهمهمون ويتهامسون، وقال أحدهم:

«**لن يحضر الأمير أبداً. وسيتلقى جنرالنا صفعة جديدة**».

كان الجنود أثناء ذلك يتبادلون التعليقات اللاذعة، والملاحظات

المقذعة، أما الجنرال (بيجو) فقد عمل من جانبه على تجنب ملامح العتاب التي ارتسمت على وجوههم، فتمدد فوق العشب محاولاً أن ينام. ثم جاءت الرسل العربية من جديد، حاملة معها إيضاحات وجيزة، فقال أحدهم: «إن الأمير كان مريضاً، وقد ابتعد عن المعسكر في وقت متأخر» وأكد ثان: «بأنه لم يذهب بعيداً» وقال ثالث: «إنه قريب جداً، ولكن حدث له ما أعاقه». وكان (بيجو) يستقبل هؤلاء الرسل بجفوة وغلظة، وأراهم كتائبه ومدفعيته ثم أعادهم.

كان العقيد (كومب) أخطر شخصية بين الحضور من الضباط، لا من حيث المرتبة طبعاً، ولكن من حيث الموهبة والخلق. فقد كان حلو الشمائل، طيب المعشر، واضح الهدف، متحمساً لمجد فرنسا حتى أقصى الحدود، ذا طبيعة بسيطة، ولكنها مؤثرة. ومع أنه كان ينتمي الى حزب احرار بلاده، وان مذهبه لم يكن تبعاً لذلك يتناسب مع مذهب الجنرال العام (بيجو) على الاطلاق. فان (بيجو) كان يثق به كل الثقة. وكانت بينهما صداقة شخصية، وان اختلفت آراؤهما حول الوضع الراهن. وقد شاهد الجميع على اثر ما حدث، الاثنين وهما مستغرقان في حديث حاد. فقد طلب (كومب) الى (بيجو) الا يدع الوقت الثمين يمضي في (تافنه) من غير عمل، ومن غير فائدة. واذا كانت المؤ ن لا تكفي للمدة المقررة للحملة (وهي أربعون يوماً) فينبغي على الأقل مطاردة (العدو) لمدة ثمانية أيام في جميع الاتجاهات. وكان العقيد يتحدث بحرارة كبيرة وحماسة دافقة. ويأسف على الملايين التي تنفقها بلاده ها هنا دون فائدة. ولا بد أن يوافقه على ذلك كل انسان عاقل. أما (بيجو) فقد فرج عن كربته، وعبر عن غضبه، بصيحات شديدة:

«... أتعرف ما سيؤول إليه أمرنا بعد أيام قليلة؟ لقد أرغمنا على الاعتراف بأن الحرب لم تعد ممكنة. إن أوامري لم تنفذ. ولسوف أكون أول من يخوض الحرب. أنا رجل شهم مثلكم. ولكننا لا نستطيع. وإذا

انسحب الأميرَ ولم يظهر، فما العمل إذن؟ آه إن هذه الحرب لعويصة جداً. . .»

كانت هذه كلمات (بيجو) وقد لوحظ عليه تردد مستمر. ولو كانت القيادة بيد (كومب) لاتخذت الاحداث مجرى آخر على ساحة الجزائر.

وصل ترجمان الفرنسيين أخيراً (رمزي) على متن جواده الذي أقبل مسرعاً يطوي الأرض طياً. وقال: «إن الأمير كان في اللحظة التي تركه فيها قد غادر معسكره مع جيشه كله. ولسوف يكون بالمستطاع رؤ يته بعد قليل». فعاود (بيجو) ابتهاجه، وانبسطت أساريره. وجلس (رمزي) وقد أخذ التعب عليه أنفاسه، فوق حجر، وراح يكتب بعض السطور التي أملاها عليه (بيجو) كاضافة لمسودة المعاهدة. ومر الوقت في أثناء ذلك، دون أن يظهر الأمير، ثم ظهرت بعض فرق خيالة العرب المسلمين وقد احتلت بعض الجبال.

كانت عقارب الساعة تشير الى الخامسة مساء، فقرر (بيجو) ـ وكان يرغب في العودة بقواته في اليوم ذاته الى معسكره ـ أن يذهب بنفسه للاجتماع بالأمير عبد القادر، فركب جواده وانطلق اليه مسرعاً، وسار معه بعض الضباط وخمسة من ذوي الأسلحة الخفيفة وعدد من الفرسان الجزائريين (الصبايحيه) فكان عددهم حوالى عشرين شخصاً.

لم يكن سبب تأخر الأمير عبد القادر هو عدم الثقة، وإنما السبب هو ما عرف عنه من الاباء والشمم. فقد أدرك أنه لا يستطيع الظهور أمام قوات العدو بصفته الأمير الحاكم للبلاد، وانما الذي يستطيعه هو أن يقف مع الجنرال الفرنسي (بيجو) على قدم المساواة. فحاول أن يتجنب هذا بدافع الأنفة الممتزجة بأصالة الرأي والفطنة، لأنه لم يكن يريد أن يتنازل عن شيء من كرامته أمام قومه.

سار (بيجو) ومرافقيه على درب وعر تقريباً طوال ثلاثة أرباع الساعة، وخيل إليهم مرات أنهم يرون الأمير فوق منحدر بين فرسانه، غير أن ذلك لم

يكن وهماً. فلم يكن هناك الا مجموعات متفرقة من الفرسان، تظهر فرادى وهي تلوح بالمناديل البيضاء. وأخيراً، وصل (محمد البوحميدي ـ شيخ قبائل نافنه) وأكد للجنرال (بيجو) أن بامكانه الالتقاء بالأمير بعد قليل. هذا فيما كان بعض الفرسان العرب يحيطون بالوفد الفرنسي من الجانب ومن الخلف. فبدأ موكب (بيجو) يضطرب. وارتفعت أصوات كثيرة هاتفة: «إننا نعرض أنفسنا للخطر، أيها الجنرال، فلنقف!...». فكان جواب (بيجو) في تلك اللحظة: «لم يعد هناك وقت لذلك، أيها السادة!»

كان (بيجو) على حق، لأنه لم يبق وقت للحذر، ذلك أن عدداً كبيراً من الفرسان كان قد أحاط به وبأصحابه. ولو أن مظاهرة الفرسان العرب لم تكن تدل على أي عداء. فقال (البوحميدي) الذي لاحظ ما اعترى الحاشية من اضطراب: «اطمئنوا، ولا تخافوا شيئاً» فأجاب بيجو: «**إني لا أعرف الخوف. فقد تعودت على منظركم. الا أني أجد أنه ليس من اللائق برئيسك أن يتركني أنتظر مدة طويلة، وآتي الى هذا المكان البعيد..**» فقال البوحميدي: «إنه هناك. وستراه بعد حين». وكان للطريق هنا منعطف، وفجأة ظهر الأمير عبد القادر وهو يمتطي صهوة جواده الأسود. والى جانبه فرقته الموسيقية، وحوله جمع من الرؤساء وقدامتطوا بدورهم جياداً رائعة ، وخلفه جيش من الخيالة والمشاة، وقد اتخذ مواقعه على منحدر التل بصورة بهيجة. وعندما لمح (بيجو) الأمير (عبد القادر) دفع جواده بضع خطوات نحوه، داعياً إياه بلطف أن يفعل مثله. إلا أن الأمير لم يعبأ به. بل حمل جواده العربي البديع على التهادي والرقص، وأظهر في أثناء ذلك مهارة فائقة في الفروسية. فكان ذلك الجواد الناري يثب أربعة أو خمسة أقدام طوراً. ويسير طوراً آخر على قدميه الخلفيتين بضع دقائق، وهو يصهل ويهدر بصوت عال، وعرفه الطويل يلامس الأرض. وكان الشيوخ والرؤساء خلفه، وعددهم حوالى مائة وخمسين أو مائتين، قد تركوا العنان لجيادهم تتهادى وتقفز كما تشاء.

أظهر الأمير (عبد القادر) عدم الرغبة في السير لملاقاة الجنرال، وإذ

ذاك، قفز (بيجو) فوق جواده، وسار إليه، ومد يده لمصافحته، فمسكها الأمير في عزة وأنفة وبصورة مهينة للجنرال. فنظر افراد حاشية (بيجو) بعضهم الى بعض، وهم يشعرون أنهم يجابهون موقفاً حرجاً، واكتست وجوه بعض المسؤولين الفرنسيين بلون الصفرة، خشية أن يكون في الأمر خدعة. وكان الجنرال (بيجو) قد نزل عن جواده، ونزل الأمير كذلك، واستلقى على العشب، من غير أن يدعو الجنرال إليه. فجلس الجنرال أيضاً إلى جانبه دونما تكلف. وجلس ترجمانه (رمزي) بينما جلس قرب الأمير نائبه (الميلود بن عراش) هذا فيما بقي مائة وخمسون رئيساً، وأغلبهم من المرابطين والشيوخ، فوق جيادهم، مشكلين صورة هلال كبير حول المجموعة، واقترب اثنان منهم، ووقفا بين مرافقي (بيجو) وبين (الأمير عبد القادر). ولعلهم فعلوا ذلك ليسرعوا إلى نجدة أميرهم، فيما إذا عنّ لمرافقي بيجو التضحية بحياتهم للقضاء على عدوهم الخطر. وهيمن الصمت لفترة قصيرة، حتى بدأ (بيجو) الحديث بقوله:

«إن الشرط الأول في المعاهدة يتعلق بالاعتراف بسيادة ملك فرنسا في أفريقيا».

فصاح الأمير: «ماذا تقول؟ وبقية أمراء أفريقيا، مراكش وتونس، هل يجب عليهم أن يعترفوا بسيادته أيضاً؟»

فأجاب بيجو: «وماذا يعنيك أنت من هذا الأمر؟».

فسكت الأمير، وقرأ الشرط الثاني، وحينئذ طلب (بيجو) رهائن كضمان لتنفيذ نصوص المعاهدة.

فقال الأمير: «في هذه الحالة سأطلب منك أنا أيضاً رهائن. ينبغي أن تكفيكم عقيدة العربي وتقاليده. فلم يسبق لي أن نقضت عهدي. أما جنرالات فرنسا فانهم لا يستطيعون أن يدعوا شيئاً كهذا» وكرر الأمير الجملة الأخيرة عدة مرات. فأجاب الجنرال: «**إنني أثق بكلمتك، وأرهن**

نفسي على إخلاصك لدى ملك فرنسا. إني أعرض عليك صداقتي الشخصية» وأجاب الأمير: «إني أقبل صداقتك، ولكني أحذر الفرنسيين من أن يعيرو المتآمرين أذناً صاغية» وقال بيجو: «إن الفرنسيين لا ينقادون لأحد. ولن يكون في الجرائم المفردة تهديد للسلم. إلا أن الأمر سيكون كذلك فيما إذا لم تنفذ المعاهدة أو يرتكب عدوان خطير. أما فيما يتعلق بالجرائم المفردة، فينبغي أن يخبر أحدنا الآخر بها، وأن نعاقب المذنبين، كل من جهته».

وقال الأمير معلقاً: «حسن جداً! أخبرني بذلك! فان المذنبين لن يفلتوا من العقاب».

واستأنف بيجو حديثه: «**أوصيك بمعاملة الكوله أغلي ـ الكراغله[1] ـ بتلمسان معاملة حسنة»** وأجاب الأمير: «كن مطمئناً، فسوف يعاملون معاملة الحضر».

وسأل الأمير مرة ثانية عن أسعار الأسلحة والذخائر التي ستسلم له، فانزعج الجنرال وهتف بترجمانه: «يا للشيطان! قل له بأنا لسنا أطفالاً. ستكون له بثمن الجيش» وظهرت علامات الرضى على وجه الأمير، وبعد فترة صمت سأل بيجو:

«**هل أمرت بأن تعود المعاملات التجارية مع مدننا إلى ما كانت عليه؟**» فكان جواب الأمير: «لا! إن ذلك لن يحدث إلا بعد أن تسلم لي مدينة تلمسان». وقال بيجو: «**ولكنك تعرف أني لا أستطيع أن أسلم لك مدينة تلمسان إلا بعد موافقة ملكي على المعاهدة**» ورد الأمير على ذلك: «إذن فليس لك تفويض بعقد معاهدة؟» فأجاب بيجو: «بلى! إن ذلك مفوض

---

(١) الكراغلة: هم ابناء المولدين من أبناء أتراك وأمهات جزائريات، وقد أظهر هؤلاء في بداية الأمر تعاوناً مع السلطات الافرنسية الاستعمارية، وأسلموا لهم قلعة (مشور تلمسان). وقد انضموا الى الفرنسيين بالرغم من أن هؤلاء قد ألزموا من قبل الحكم الفرنسي بدفع ضرائب وغرامات فادحة.

لي، ولكن المعاهدة يجب أن يصادق عليها. وهذا أمر ضروري كضمان لك. فاذا عقدت المعاهدة من طرفي فقط، فان في امكان خلفي الغاءها. أما إذا وافق الملك عليها فان خلفي مجبر أيضاً على احترام نصوصها».

وقال الأمير: «إذا لم تسلم لي مدينة تلمسان، فانه لا فائدة لي من عقد المعاهدة. وعلى هذا فانها ستكون هدنة لا غير!» **وأجاب بيجو: «حقاً! ربما تكون مجرد هدنة، ولكن فيها كسباً لك وحدك. ألا تخاف مدفعيتي؟ وإذا دمرت محصولاتك وحرقتها...؟»**

وأجال الأمير: «إن الشمس هي مدفعيتي التي ستقضي على جيوشك. ولك أن تحرق على أية حال جزءاً من محصولاتنا. فسوف نجد القمح في مكان آخر. إن بلادنا كبيرة. ولن تستطيع مطاردتي بأرتال قواتك، لأن الحرارة والأوبئة سوف تهلكها. وحيثما ظهرت انسحبنا من أمامك، ثم لا تلبث أن تنتهي ذخيرتك. أما نحن البدو الرحل، فاننا سنجد في كل مكان ما يكفي لغذائنا».

وقال(بيجو)معلقاً: «أعتقد أن العرب لا يفكرون مثلك. وقد شكرني بعضهم لأني لم أتعرض لتخريب حقولهم». فضحك الأمير باحتقار، ثم سأله: «كم يلزم من الوقت لوصول الموافقة الملكية واقرار المعاهدة؟» فأجابه (بيجو): «ثلاثة أسابيع». وقال الأمير: «هذه مدة طويلة» فأجاب (بيجو): «انك لن تفقد شيئاً في خلال ذلك». فاقترب (الميلود بن عراش) وقال للجنرال: «إن ثلاثة أسابيع هي مدة طويلة. إننا لن ننتظر اكثر من أسبوع الى اسبوعين» فصاح (بيجو): «هل يمكنك أنت أن تصدر أوامرك الى البحر؟». فأجاب «بن عراش»: «إذن! لن تستأنف العلاقات التجارية إلا بعد وصول موافقة ملكك». **وذكر المترجم (رمزي) أن (بيجو) قال للأمير في أثناء المحادثة: «إن أسرتنا أو قتلتنا، فانك لن تكسب من ذلك شيئاً! ذلك أن هناك بعد في فرنسا ألف جنرال مثلي!...»**

استمرت المداولات فترة ثلاثة أرباع الساعة، نهض (بيجو) بعدها،

بينما ظل الأمير مضطجعاً دون أن يهتم به أدنى اهتمام. فنظر اليه مندهشاً، ويداه معقودتان على صدره، ثم أمسك بيده فجأة، وأنهضه، فابتسم الأمير شاكراً لطفه هذا، وانتصب على قدميه.

عندما قرأ الجمهور الفرنسي مجرى هذه الحادثة، ظن أن سلوك الجنرال (بيجو) كان يتسم بالشهامة والنبل. ولكن انهاضه للأمير قد ترك في الواقع أثراً معاكساً في نفوس الجزائريين، إذ اعتبروه إهانة للجنرال الفرنسي، خدمة الخدم، من نوع خدمة الامبراطور (فريدريك باربروسا)[١] الذي أمسك ركاب الباب.

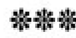
كانت عقارب الساعة تشير الى السادسة مساء عندما انتهت المحادثات، وأخذت الشمس في الغروب وراء السحب. فوثب الأمير، دون أن يلتفت حوله، فوق صهوة جواده، وصعد الجبال عدواً، وتبعه شيوخه وبكار رجاله. وفي تلك اللحظة، ارتفعت فجأة هتافات طويلة للجيش الذي انتصب كما تنتصب الأشباح، والذي بقي كامناً من غير أية حركة طوال المباحثات. ثم انطلق متدحرجاً من سفح الجبل نحو قمته، كما تندفع موجة البحر. وبعد ذلك بقليل، انطلق من بين السحب صوت الرعد المكتوم، ردد صداه الجبال، فزاد من روعة المشهد واثارته. وأقبل (بيجو) على مرافقيه وهو يقول لهم: «**يا له من رجل معتد بنفسه، ولكني أرغمته على النهوض**». ولعله أحسن في أعماقه بأن العرب لم ينظروا الى سلوكه على أنه عمل بطولي.

---

(٢) فريديك باربروسا: (FREDERIC - 1er - BARBEROUSSE) امبراطور الغرب (١١٢٣ - ١١٩٠ م تقريباً) أصبح ملكاً لجرمانيا سنة (١١٥٢) وتم تتويجه ملكاً لايطاليا سنة (١١٥٥ م) ثم امبراطوراً في السنة ذاتها، أرسل حملات عديدة الى ايطاليا، ودمر ميلانو سنة (١١٦٢ م) غير أنه بات مرغماً على الاعتراف بمطالب المدن اللومباردية بعد هزيمته سنة (١١٧٦) في معركة ليغنانو: (LEGNANO) ومات غريقاً في (سيليسي ـ CILICIE) اقليم طوروس أثناء الحملة الصليبية الثالثة.

سار (بيجو) ومرافقيه على طريق العودة، وقد ثارت في نفس كل واحد منهم مشاعر غريبة. كانوا يشعرون بخدر يسري في أوصالهم مما شاهدوه حتى كأنهم في حلم. وكان (بيجو) ذاته مطرقاً صامتاً، وجواده يسير به على هواه. وعندما وصل الركب الى المعسكر، التف حولهم مائات من الضباط الفضوليين. وحسدوهم على ما شاهدوه. فوجب عليهم أن يرووا لرفاقهم الذين لم يتشرفوا بحضور (الموقف التاريخي) كافة تفاصيل اللقاء، مع اضافات وتعليقات شخصية لا بد منها. هذا فيما كان (مصطفى بن اسماعيل)[٣] جالساً على العشب. وقد غام وجهه وتدلى رأسه الجميل المحترم فوق صدره. كان يشبه نبياً يحتضر. وعندما سمع بأن كل شيء قد أصبح الآن على ما يرام، وأن الحرب مع الأمير لن تستمر بعد، قال بنبرة ملؤها المرارة:

«لم يبق لي الآن إلا أن أسافر الى مكة المكرمة، وأكفر في الكعبة عن الثقة التي منحتها لسلطات فرنسا».

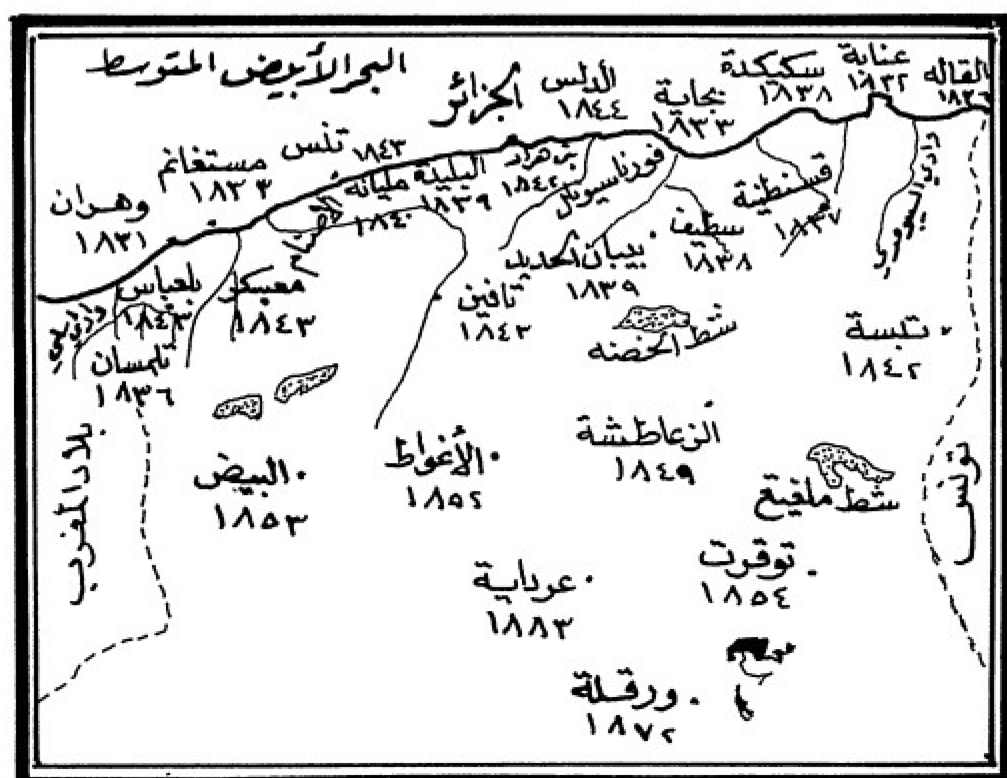


تلك هي قصة (الموقف التاريخي) الذي انتهى بعقد (معاهدة تافنة) الشهيرة. والتي صدق عليها ملك فرنسا بعد اسبوعين من هذا اللقاء. وكانت المعاهدة في حد ذاتها نقطة تحول حاسمة في حياة الجزائر، إذ انها مهدت للقضاء على معقل المقاومة الرئيسي في (قسنطينة). وهي المقاومة التي

---

(٣) مصطفى بن اسماعيل: أصله من قبيلة الدوائر، وأصبح من أذناب الفرنسيين المعروفين أيام الاحتلال. وكان في العهد التركي يحتل منصب (الآغا) في منطقة (وهران) وقد تصدى لمحاربة (الأمير عبد القادر) فلما هزمه الأمير هرب الى (مشور تلمسان) وسلمها الى الفرنسيين سنة (١٨٣٦ م). ومنذ ذلك الحين باع ضميره لهم، وراح يطعن وطنه في الصميم، ويخون اخوانه بشكل مخجل. كل ذلك نظير لقب (مارشال) مع راتب هذه الرتبة. وكان يبلغ في حينها الثمانين من عمره. وبقي اكثر حماسة لمحاربة الأمير عبد القادر من الجنود الفرنسيين، ومع أن الأمير سبق له أن شمله بحلمه وشهامته بعد انتصاره عليه في أحد معاركه الأولى معه. المرجع: (الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان ـ ابو العيد دودو ـ الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ـ الجزائر ـ ١٩٧٥ ـ ص ٤٣ ـ ٥٤)

كان يقودها (أحمد باي) ببسالة نادرة، وارادة صلبة. فكانت فرنسا في حاجة لمهادنة احدى الجبهتين المتنافستين، فأمكن لها عقد (معاهدة تافنة) مع الأمير عبد القادر. واستطاعت بذلك تركيز جهدها على جبهة الشرق والقضاء على المقاومة في (قسنطينة) حتى اذا ما تم لها ذلك، عادت فنقضت المعاهدة، واستأنفت الحرب ضد الأمير عبد القادر. وكان (بيجو) هو الذي تولى قيادة القوات الفرنسية في المرحلتين. وبذلك ارتبط اسمه بأكثر أحداث الجزائر أهمية في مرحلة تطوير الاستعمار الفرنسي للسيطرة على كامل التراب الجزائري. وعلى هذا فقد يكون لزاماً العودة الى الجهود التي بذلها الاستعماري (بيجو) منذ أن بدأ قيادة الصراع السياسي والعسكري ضد الجزائر وشعبها وقياداتها.



تواريخ احتلال فرنسا لمختلف مدن الجزائر

٢ ـ بيجو ـ والمأزق الاستعماري

نزلت القوات الفرنسية في (المرسى الكبير). واقتحمت مدينة الجزائر يوم ٥ تموز ـ يوليو ـ ١٨٣٠ م. غير أن الأرض الجزائرية رفضت الخضوع لقوات الغزو، فبدأ الشعب الجزائري بتنظيم المقاومات المتتالية، وأصبحت الجزائر مختبراً لنظريات قادة الحرب الفرنسيين (الجنرالات). وكان الفشل من نصيب معظمهم، فكان يتم استبدالهم واحداً بآخر، وكلما سقط قائد أرسلت فرنسا بديلاً له، اكثر خبثاً، وأعمق حقداً، واكبر لؤماً. ومضت سنوات، ولما تسيطر القوات الفرنسية إلا على شريط ساحلي ضيق، كان معرضاً للتهديد باستمرار. وظهر واضحاً أن الغزو الفرنسي للجزائر بات يجابه مأزقاً حاداً، لاسيما وأن قاعدتي المقاومة في (معسكر) و(قسنطينة) كانتا تتزايدان قوة يوماً بعد يوم في حين كانت القوات الفرنسية تتزايد استنزافاً يوماً بعد يوم. وكان الموقف في سنة ١٨٣٧ على ساحة الصراع في الجزائر كالتالي:

تشكلت حكومة (تيير)[٤] في ٢٢ شباط ـ فبراير ـ ١٨٣٦. وعندما قامت هذه الحكومة بتقديم ميزانية الحرب إلى (مجلس النواب) تعرضت لحملة انتقادات مريرة، فما كان من (تيير) إلا أن استدعى حاكم الجزائر

---

(٤)تيير ـ ادولف: (THIERS - ADOLPHE) رجل دولة ومؤرخ فرنسي، من مواليد مارسيليا، (١٧٩٧ ـ ١٨٧٧ م) بدأ حياته محامياً سنة (١٨١٩ م) في مدينة اكس (AIX) ثم انتقل الى باريس ليبدأ حياة جديدة في الصحافة حيث أسس صحيفة الأمة (LA NATIONAL) سنة (١٨٣٠). وأسهم باقامة النظام الملكي في شهر تموز ـ يوليو ـ فأصبح وزيراً سنة (١٨٣٢ م) ورئيساً للوزراء سنة (١٨٣٦ م) و(١٨٤٠). فرئيساً للحزب المحافظ سنة (١٨٤٨) واعتقل بعد ذلك سنة (١٨٥١ م) غير أنه عاد في السنة التالية لعمله. وانتخب نائباً في انتخابات سنة (١٨٦٣) و(١٨٦٩) وتصدى لمقاومة سياسة الوطنيين. وحذر من خوض الحرب ضد (بروسيا). وتم تعيينه رئيساً للسلطة التنفيذية. حيث أصبح لزاماً عليه التوقيع على اتفاقية (فرانكفورت)مع بروسيا. وانتخب رئيساً للجمهورية سنة ١٨٧١. وارتبط اسمه بتحرير الحدود الفرنسية. وقد تحالفت الاحزاب الملكية ضده والاحزاب المحافظة، فأمكن لها الإطاحة به في ٢٤ أيار ـ مايو ـ ١٨٧٣. فانتخب بعد ذلك عضوا في مجلس الشيوخ عن (بلفورت) ثم عن (باريس). وترك مؤلفاً تاريخياً هاماً هو (تاريخ الثورة الفرنسية ١٨٢٤ ـ ١٨٢٧) وكذلك مؤلف (تاريخ القنصلية والامبراطورية (١٨٤٥ ـ ١٨٦٢ م)

وقائد قواتها (كلوزويل) حتى يواجه بنفسه حملة الانتقادات التي كانت توجه الى سياسة الاستعمار والاحتلال. واستغل (كلوزويل) فرصة وجوده في باريس، من أجل الدفاع عن سياسة الأمر الواقع التي كان ينتهجها، والتي كانت في نشوز صارخ مع السياسة التي كان البرلمان قد اعتمدها في السابق، ولاقناع الحكومة بقيمة مشروعاته الجديدة في الغزو والاستعمار. كما عمل على تنسيق الجهد بين مختلف الجمعيات والهيئات التي تعمل لتشجيع الاستعمار الاوروبي في بلاد ما وراء البحار، أو تدعو إليه، وجمع نيفاً وألفين من المغامرين، خصوصاً من ألمانيا وفرنسا، ومن بينهم عدد من قدماء المحاربين، لغرض زرعهم في الجزائر، وقد كان الشرط الوحيد الذي يشترطه لقبول الاوروبي، وليصبح أهلاً لتقطع له الأرض، هو أن يملك ما يكفي لإعالة نفسه سنة، ولبناء منزل، ولشراء الأدوات الزراعية. ومتى نزل في الجزائر، وجد المعمر الجديد في انتظاره قطعة من الأرض تتراوح مساحتها بين ٤ و١٢ هكتاراً من الأرض الطيبة.

وفي الوقت ذاته، وجد (كلوزويل) [٥] الوقت للدفاع عن مشروع ميزانيته سنة (١٨٣٧م) دفاعاً استقبل بكثير من الفتور، ولكنه مع ذلك، مكن الحكومة من الحصول على الاعتمادات التي طلبتها، على الرغم من الجهود التي بذلها زعماء المعارضة. ولما قام (تيير) رئيس الوزارة للدفاع عن مشروع الميزانية باسم الحكومة، اغتنم هذه الفرصة لاعلان الخطوط الرئيسية للسياسة التي ينوي انتهاجها في (الجزائر) ولا سيما في توسيع رقعة الاحتلال، فصرح بقوله:

«. . . إذا أرادت فرنسا الاقتصار على احتلال الشواطىء، فإنه يكفي الاحتفاظ بنقطة واحدة تكون بمثابة قاعدة جبل طارق ـ التي تحتفظ بها بريطانيا ـ وترك الباقي. غير أن العرب في هذه الحالة سيأتون لمحاربتكم

---

(٥) كلوزويل (CLAUSEL , ou CLAUZEL - BERTRAND) ماريشال فرنسي، من مواليد ميروبوا (MIREPOIX) (١٧٧٢ ـ ١٨٤٢ م) تولى قيادة جيش أفريقيا ـ في الجزائر ـ ثم عين حاكماً عاماً للجزائر، فاستولى على معسكرة سنة (١٨٣٥ م)

فيها. وبالتالي فان الاحتلال المحدود الرقعة، شيء لا معنى له، والأفضل من ذلك التخلي عن الاحتلال كلية... إن الاحتلال الوحيد المجدي والعملي هو الاحتلال الواسع النطاق»

هذا ما كان يحدث في فرنسا، أما على مسرح العمليات في الجزائر، فقد أصبحت (وهران) هي القاعدة الرئيسية للأعمال القتالية، وكان (كلوزويل) قبل سفره الى (باريس) قد كلف قواته بمتابعة تنفيذ المهمة التي عجز هو ذاته عن تنفيذها، ألا وهي فتح طريق للمواصلات ما بين (أرشغول) و(تلمسان). وبناء معسكر محصن عند مصب (نهر تافنة). وتم تخصيص (٣٥٠٠) جندي وضابط لتنفيذ هذه المهمة. وقد غادرت القوة المذكورة مدينة (وهران) يوم ٧ نيسان - ابريل - ١٨٣٦، الى(وادي حيمر) في ١٩ من الشهر. وهناك توقفت لمدة ثلاثة أيام، حيث شرعت في تعبيد الطرق التي تمر بجبل تساله.

تجمعت قوة من المجاهدين المسلمين يبلغ عدد أفرادها (٧) آلاف مجاهد تقريباً في يوم ١٥ نيسان - ابريل - وأخذت تتهدد مسيرة القوة الفرنسية التي أخذت في التوغل عبر مضيق (وادي غزر) المؤدي الى (تافنة). وقد حاول عميل فرنسا (مصطفى بن اسماعيل) القيام بهجوم مضاد على رأس أتباعه، مخالفاً بذلك أوامر السلطة الفرنسية. ولكن قوات المسلمين سرعان ما أحاطت بهم، وأرغمت قوات الفرنسيين وأنصارهم على خوض معركة لانقاذ مؤخراتهم الادارية وتموينهم. على أن زحف المسلمين تزايد شدة وضراوة، حينما رأوا أنهم الآن وجهاً لوجه أمام الجيش الفرنسي كله، وليس أمام شرذمة من أعوان الفرنسيين فقط. وقد كان الهجوم دفعة واحدة، كما لو كان قفزة رجل واحد. وكان المجاهدون المسلمون يندفعون وراء أمرائهم، غير مبالين بنيران المدافع، فاجتازوا دائرة أهداف طلقاتها، ليشتبكوا مع العدو بالسلاح الأبيض. وتكبدت القوات الفرنسية خسائر فادحة، غير أنها تمكنت من استئناف سيرها في المضيق. فوصلت يوم ١٦ نيسان - ابريل - إلى مصب (نهر تافنة) في مقابل (جزيرة أرشغول) وهناك،

وقبل أن تبدأ القوات في بناء التحصينات التي جاءت من أجلها، وجدت أنها باتت مطوقة بقوات المجاهدين (بقيادة البوحميدي ـ أحد قادة الأمير عبد القادر).

حاولت القوات الفرنسية اختراق دائرة الحصار، والقيام بعملية سبر هدفها معرفة مواقع العرب ونواياهم، فانطلقت قوة من (١٨٠٠) ضابط وجندي على اتجاه الغرب وعبرت نهر تافنه في ليل ٢٤ ـ ٢٥ نيسان ـ ابريل ـ ولما وصلت إلى (سيدي يعقوب) على مسافة حوالى عشرة كيلومترات من (تافنه)، سارع الأمير عبد القادر لملاقاتها حيث كانت قواته تعسكر على ضفة (نهر يسر). وبينما كانت القوة الرئيسية للجيش العربي تحاصر القوة الفرنسية المتحركة، كانت هناك قوة أخرى تقوم بهجوم على القوة الفرنسية التي بقيت في معسكر (تافنه). وقد حاولت القوة الفرنسية المتحركة العودة إلى قاعدتها، غير أن القوات العربية قطعت عليها خط التراجع. وشددت ضغطها عليها، ولا سيما على المشاة الذين كانوا يقومون بهجمات يائسة محدودة النطاق في محاولة لاختراق دائرة الحصار. وقد اشتدت جرأة العرب حتى انهم وصلوا إلى مواقع المدفعية، وطردوا سدنة المدافع الذين سلموا مدافعهم للمجاهدين العرب. وما إن أزفت فترة الظهيرة حتى تمزقت القوة الفرنسية المتحركة شر تمزق، وأصيب قائدها (دارلانج) ورئيس هيئة أركان حربه. تحولت القوة العربية بعد ذلك لاحكام دائرة الحصار على (معسكر تافنه) وذلك قبل أن تصله نجدات فرنسية من حامية (وهران). وعانت الحامية الفرنسية في (معسكر تافنه) ظروف الحصار الصعبة، غير أنها صمدت بعناد، وفي يوم ٢٩ نيسان ـ أبريل نفدت مؤن الحامية ولم يبق لديها من المواد التموينية ما يكفيها لأكثر من يومين اثنين. وزاد من شدة وطأة الحصار هبوب عواصف عاتية، وسقوط أمطار غزيرة، مما جعل من المحال وصول امدادات أو مواد تموينية عن طريق البحر. وهكذا تكدس أفراد الحامية الفرنسية في العراء، بدون مأوى أو سقف يحميهم من المطر والرياح، وبين أفراد الحامية عدد كبير من الجرحى الذين زاد من آلام

جراحهم تعرضهم لازعاج الحشرات ولدغاتها. وكان على أفراد الحامية اختراق طريقهم بالسلاح والتعرض للقتال والقتل في كل مرة تدفعهم الحاجة للحصول على العشب للخيول والحطب للنار والماء من (نهر تافنه). وبقيت الوجبات الوحيدة التي يستطيعون الحصول عليها هي عبارة عن حفنة من الأرز ولحم الخيول. واستمرت حالة هذه القوة في التدهور، وباتت عملية انقاذها تتطلب التدخل بشكل حاسم من جانب السلطة الفرنسية. **قررت وزارة الحربية الفرنسية مجابهة الموقف، فأرسلت (الجنرال بيجو) من باريس يوم ٢٣ أيار - مايو - ١٨٣٦ على رأس قوة تتكون من ثلاثة فيالق من المشاة بمهمة الاستيلاء على (معسكر تافنه) وتنظيم المقاومة فيه.**

وصلت قوات الدعم العسكرية بقيادة (الجنرال بيجو) الى مصب (نهر تافنة). ونزلت إلى البر خلال الفترة بين يومي ٤ و٦ حزيران - يونيو - وبعدما استولى (بيجو) على معسكر تافنة، ترك فيه حامية تتكون من (١٨٠٠) ضابط وجندي، ثم سار على رأس بقية الجيش، سالكاً طريق الساحل الى (وهران) ثم اتجه من هناك الى (تلمسان). حيث وصل في ٢٤ حزيران - يونيو - لمحاولة رفع الحصار الذي ضربه المجاهدون العرب على الحامية الفرنسية المدافعة عن (مشور) وايصال المؤن والامدادات اليها.

تعلم (بيجو) أثناء رحلته درسين أساسيين في حرب الجزائر، وهما: أولاً - أن يستغني عن العربات والمدافع التي تعوق الجيش عن الحركة، والاعتماد على الخيل والبغال لاستعمالها في النقل. وثانياً - أن حصار الوطنيين الاقتصادي كان شاملاً وفعالاً بحيث لا يمكن الاعتماد على موارد البلد لتموين جيشه، وهذا يصدق خصوصاً على حامية (تلمسان) و(حامية تافنة).

عجز (بيجو) عن تأمين المواد الضرورية لامداد جيشه وتموينه في **(تلمسان)** ولذلك قرر العودة الى (أرشغون) لنقل ما يحتاج إليه من المواد



ضابط في خيالة الأمير عبد القادر

الغذائية. وأثناء ذلك، لم تحاول القوات العربية ـ الاسلامية التدخل، فتركت للجنرال (بيجو) حرية التنقل والحركة في ذهابه وإيابه، غير أنها وضعت كافة هذه التحركات تحت المراقبة الدقيقة. ولما اتخذ (بيجو) طريقه عائداً إلى (تلمسان) في صباح يوم ٤ تموز ـ يوليو ـ ومعه قوة كبيرة لحماية قافلة تتكون من (٥٠٠) جمل و(٣٠٠) بغل محملة بالمواد التموينية، كانت القوات العربية قد نظمت حراسة مشددة على طريق (تافنه). وأدرك الجنرال (بيجو) الخطر الذي يتهدده، فقرر اتخاذ تدابير الحيطة، ووضع (العقيد كومب) على رأس ثلاث كتائب، وسيره مع القافلة التي تحمل المؤن في المقدمة، بينما بقي هو مع معظم قواته في المؤخرة. استطاع (كومب) خداع قوة من فرسان (بني عمرو). وتمكن وقواته من عبور نهر (يسر) في يوم ٧ تموز ـ يوليو ـ. ولم يبق له حتى ينجو من الخطر إلا اجتياز منخفض (وادي سكيك) العميق. وكان هذا بالضبط هو الموقع الذي اختاره (الأمير عبد القادر) لنصب كمين للجيش الفرنسي. وكان قد قسم جيشه إلى قسمين: وضع القسم الأول منه تحت قيادة الخليفة (مصطفى بن التهامي) على الضفة الشرقية للنهر، بينما عسكر هو على رأس قيادته ومعظم جيشه المكون من تشكيلات جيش المشاة النظامي، والخيالة وفرسان القبائل البربرية والانكاد، على الضفة الغربية. وكذلك كانت هناك قوات عربية قد عبرت نهر يسر، وتسربت الى مواقعها في الشمال، تاركة الطريق المؤدية الى (وادي سكيك) حرة وخالية من كل حراسة بهدف اغراء الجيش الفرنسي على التقدم الى الوادي مباشرة، بحيث تحيط به من الأمام والخلف وتدفعه الى المنخفض حتى تتمكن من تمزيقه وتشتيته. وبينما كانت قوات (كومب) تعبر (نهر سكيك) في الصباح المبكر، هاجمها (مصطفى بن التهامي) بقواته، ولكن (بيجو) استطاع اللحاق بالقافلة، وزج كتيبة من المشاة وسرية من (قناصة أفريقية) و(فرسان الدوائر) فأمكن له دحر هجوم (مصطفى بن التهامي) ثم أسرع إلى نجدة القافلة لمساعدتها على العبور إلى الضفة اليسرى، ثم وزع قوته إثر ذلك ورتبها

ترتيباً محكمًا على مختلف المواقع وفقاً لمخطط يمكن اعتباره نموذجاً تقليدياً ـ كلاسيكياً ـ لتخطيط المعارك.

أخذت القوات العربية التي كانت مجمعة في الهضاب المجاورة (لنهر يسر) تتدفق فجأة كالسيل في هجوم عام وشامل، بحيث ان (بيجو) لم يتمكن من إصدار الأوامر بالتفصيل لتحديد دور مختلف تشكيلات جيشه، وكذلك عجز عن توصيل الأوامر إلى قوات (الدوائر والزمالة). التي تركها مشتبكة على الضفة اليمنى لنهر سكيك مع قوات (ابن التهامي) ولكنه أدرك بحكم تجاربه الطويلة في المعارك، أن سرعة رد الفعل قد تكون عاملاً حاسمًا في الموقف. ولذلك أصدر أمراً بتنشيط المدفعية في وجه الخيالة العربية، ثم قام هو بهجوم مضاد عليها. وفي هذه الأثناء صبت القوات العربية ـ التابعة لقيادة الأمير عبد القادر مباشرة ـ وابل نيرانها على الكتائب الثلاث التي يقودها (كومب) والتي كانت قد دخلت المعركة من جديد، فدحرتها واضطرتها الى التقهقر. وفي هذا الوقت ذاته، أصدر (بيجو) أمره إلى (قناصة أفريقية) بالهجوم على الفرسان العرب، غير الخيالة النظامية، فهجموا عليهم ودفعوهم الى الوراء. ثم اشتبكوا بالسلاح الأبيض مع مشاة القبائل. على أن قوة الخيالة العربية اندفعت إلى ميمنتهم، بينما ظهرت قوة من المشاة خرجت من مجرى في المنخفضات، وأصلتهم ناراً شديدة فاضطروا الى التراجع. ولكن قوة من الدوائر (الجزائريين الذين جندتهم فرنسا لخدمتها) تتكون من (٤٠٠) فارس، دخلت المعركة الآن في حماسة نادرة، على الرغم من أن زعيمهم مصطفى بن اسماعيل كان قد أصيب برصاصة في يده منعته عن مواصلة القتال، لدعم (قناصة أفريقية) مما اضطرت الخيالة العربية للتراجع. وفي تلك اللحظة، أصدر الأمير عبد القادر أوامره الى قوة مهمة من جند المشاة النظامي كان قد احتفظ بها حتى الآن خارج المعركة، ودفع بهذه القوة الاحتياطية مع قوة من الفرسان إلى ساحة المعركة، فسلطوا نيرانهم القوية على القوات الفرنسية. على أن سوء الطالع رافق هذا الهجوم، فقد نجح الفرنسيون في دفع قوة المشاة إلى

منحدر صخري صعب، سقط فيه كثير من أفرادها، وحاصر الفرنسيون بقيتها، وأعمل فيهم السيف، فتحولت المعركة عند هذه المرحلة الى مجزرة، شاركت فيها قوات العملاء (الدوائر) بما عرف عنها من الحقد والقسوة والوحشية. وأما خيالة الأمير عبد القادر، فقد اتجهت إلى الهضاب التي تمتد على ضفة (نهر تافنه) بهدف إعادة تنظيم نفسها. ولما رآها (بيجو) زحف عليها على رأس معظم قواته من المشاة والمدفعية، عازماً على سحقها وهي تحاول عبور النهر. ولكنها تمكنت من العبور قبل أن يلحق بها وأفلتت من العدو. وحينئذ رأى (بيجو) أن السلامة هي في عدم محاولة اجتياز النهر، حتى لا يفسح المجال أمام القوات العربية لتطارده بعد أن يكون هو مطارداً لها، لاسيما وأن جنوده قد نال منهم التعب والاجهاد والقيظ، فتوقف عند الضفة اليمنى. وبعد هذه المعركة التي اعتبر الفرنسيون نهايتها نصراً كبيراً لهم، واصل جيش (بيجو) سيره إلى تلمسان حيث سارعت حاميتها ومعها حفنة من (الكلوغليين)[٦] واليهود لاستقباله وتهنئته خارج المدينة.

---

(٦)وجه هؤلاء (الكلوغيون- الكراغلة) رسالة إلى الجنرال بيجو جاء فيها:

«الى نائب فرنسا في الجزائر الجنرال بيجو

تحية واحتراماً وبعد.

إننا نشكركم على الأعمال الجليلة التي قمتم بها في الجزائر لصالح بلادكم، وهذا ما يسرنا نحن الكراغلة، لأننا نريد أن يكون لملك فرنسا شخصية محترمة كشخصيتكم لتنوب عنه في الجزائر. وقد وصل وفد من أبناء جلدتنا الذين انضموا إليكم وأخبرنا بالمعاملة الحسنة التي لاقاها من جانبكم، وهذا إن دل على شيء فانه يدل على سلوككم الحسن، ومراعاتكم الانسانية للكراغلة الذين قرروا جميعاً أن يكونوا من أنصاركم. ولقد عودتمونا الانصات لمطالبنا وتأييد كل منها ولهذا نسمح لأنفسنا أن نحيطكم علماً أنكم لما جئتم (تلمسان) وجدتمونا على أسوأ حالة، وانكم قمتم بما يتطلبه الواجب فواسيتمونا، وأتحتم لنا الفرصة لاسترداد حقوقنا المسلوبة، وأن نعيش كما يعيش اناس يؤمنون بالمبادىء والقيم الانسانية، وبمجرد ما رحلتم عن الجزائر وجاء بعدكم (كلوزويل) رأينا أثناء إقامته في الجزائر ما أقلق مضاجعنا وأتلف أموالنا وألحق بنا العار».

٣ - بيجو - والسياسة الاستعمارية

أدركت الحكومة الفرنسية أنها عاجزة عن بسط سيطرتها على ولاية (وهران) بالرغم من الانتصار الذي حققه (بيجو) على قوات الأمير عبد القادر، إذ لم تلبث القوات في هذه الولاية أن أعادت تجمعها في مقر قيادتها في (معسكر). وفي الوقت ذاته بقيت المقاومة في (قسنطينة) على أشدها.

وكانت الحكومة (الفرنسية) في حاجة إلى نصر سريع وحاسم وقليل التكاليف، حتى تضمن استمرار الاعتمادات العسكرية الهائلة التي تلتهمها حرب الجزائر، وحتى تتمكن من اسكات اصوات المعارضة الصاخبة، وكان البحث عن مثل هذا النصر رائد القادة العسكريين الفرنسيين في الجزائر الذين يعملون على زيادة أرصدتهم المادية والمعنوية، يحفزهم إلى ذلك أيضاً الرأي العام الفرنسي، الذي كان يبدي قلقاً متزايداً، وامتعاضاً كبيراً، وجد أصواتاً للتعبير عنه في البرلمان وعلى أعمدة الصحف؛ لأن حملات التخريب والغزوات والمعارك المتجددة كانت كلها موجات متتالية تتحطم الواحدة منها تلو الأخرى على صخرة المقاومة الجزائرية، دون أن تجني فرنسا من ورائها فائدة. وفي غضون هذه الفترة، زادت الاعتمادات المخصصة للحرب زيادة كبيرة في كل سنة، كما زاد عدد أفراد الجيش العامل في أفريقية من (٣٨,٨٥٠) ضابطاً وجندياً في سنة (١٨٣٥) الى (٤٢,٠٦٧) ضابطاً وجندياً في سنة ١٨٣٧. وعلى هذا فما ان انجز (بيجو) عملياته، بنجاح، حتى ظن (كلوزويل) أن الفرصة باتت متاحة أمامه للقيام بعملية عسكرية واسعة النطاق، هدفها الاستيلاء على (قسنطينة) عاصمة الشرق الجزائري. وجهز حملة تضم (٨٧٠٠) ضابط وجندي، وصلت الى الولاية الشرقية في ١٢ تشرين الثاني - نوفمبر - ١٨٣٦ م.

كانت (قسنطينة) تحت حكم (الحاج أحمد باي) الذي حقق نجاحاً رائعاً في ادارة ولايته، وكانت له عيون - جواسيس - في الجزائر وفي تونس، وفي المغرب، فكان على معرفة تامة بكل ما يحدث، وقد أمكن له امساك

السلطة بقبضة قوية. فكان أقوى من الحكام الذين سبقوه. فكان مهيب الجانب من اصدقائه، مرهوب الجانب من اعدائه، واستطاع تكوين جيش نظامي يزيد على خمسمائة جندي تركي، وألفين وخمسمائة من القبائل، وكان باستطاعة القادة التابعين له حشد اكثر من ثلاثة آلاف جندي. وكان لديه من الخيل ألفان ومن البغال ثلاثة آلاف، وكان رصيده من الذهب مليونين ومئتين وثمانين ألفاً. وكان لديه كميات كبيرة من البارود. وقد حاول الفرنسيون مرات عديدة الوصول الى (قسنطينة) غير أن المقاومة الضارية أحبطت كل هذه المحاولات. إذ كانت المدينة تتميز على غيرها بالوعي الديني، فكان عدد المساجد فيها يزيد على (٣٥) مسجداً، وبها سبعة معاهد عليا، و(٩٠) مدرسة ثانوية. ومما زاد من منعة المدينة أنها كانت تحتمي بثلاثة حصون فكان (حصن عنابه) يحميها بحراً، وكان (حصن قسنطينة) يحميها براً، كما كان (حصن بسكرة) يحميها من جهة الصحراء. وكان يسكنها (٥٠٢٥) من الأتراك والكراغلة و(٦٠٠٠) عربي و(١٠٠٠) يهودي. واستطاع الاستقرار الذي حققه (الحاج أحمد باي) أن يضمن ازدهاراً زراعياً، وتطوراً تجارياً، وأفاد أبناء قسنطينة من هذا الرخاء للحصول على ثروات طائلة.

كان (الحاج أحمد باي) حاكم قسنطينة، يعتقد أن الأحداث التي أدت الى احتلال الجزائر، ستقتصر على الجزائر فقط، وأن قسنطينة لن تستسلم، وستبقى حرة طليقة، ولوأجهدت فرنسا في الاستيلاء عليها. غير أن (كلوزويل) - الباحث عن النصر - ركب مركب المغامرة، فأنزل قواته المنقولة بحراً في (عنابة) وفي الشهر ذاته احتل (قالمة) وأقام فيها أياماً. ثم عرض جنده، وزحف الى (قسنطينة) فتلقاه القائد (علي بن عيسى) وقاتله قتالاً شديداً. وعجزت القوات الفرنسية عن اقتحام دفاع المدينة عن طريق مضيق (وادي الرمل) و(باب القنطرة) وفي آخر النهار، تقهقر الجيش الفرنسي بدون نظام، تاركاً وراءه السلاح والمتاع - الاعتدة - والجرحى. وبعد هذه الهزيمة، حاولت فرنسا مرة أخرى أن تعقد معه محالفة - معاهدة

ـ للصلح، ولكنه رفضها رفضاً باتاً.

أفاد الأمير عبد القادر من هذه الهزيمة، فأمر خليفته على (مليانة) ـ ابن علال ـ بالزحف على سهل متوجة (متيجة) فانتهب المجاهدون حقولها، وضربوا زرعها، ثم ضربوا حصاراً اقتصادياً على مدينة (الجزائر). كما سرح (البوحميدي) و(مصطفى بن التهامي) في اتجاه مدينة (وهران)، على رأس جموع قبيلة (الغرابة) و(بنو عمرو) فاكتسحوا نواحيها، ودمروا زراعتها، وانتهبوا الأبراج القريبة من أسوارها، ثم ضربوا عليها سياجاً من الرماة، وقطعوا عن أسواقها العملاء من العرب الذين يترددون عليها. وبات وضع الجيش الفرنسي في الجزائر حرجاً جداً بسبب الحصار الاقتصادي الذي فرض عليه. وارتفعت الاصوات ـ في الجزائر كما في فرنسا ـ مطالبة بتسوية سلمية مع مسلمي الجزائر، تتيح فرصة لالتقاط الانفاس، لاسيما بعد فشل حملة قسنطينة، وتسمح بالتالي باعداد حملة جديدة ضد قسنطينة وحاكمها العنيد الذي رفض أي مفاوضات مع اعداء الدين ـ الفرنسيين ـ. فكان لا بد من تسوية سلمية في الغرب (مع الأمير عبد القادر) تضمن مؤقتاً لفرنسا الانتقام لهزيمتها في الشرق. وتردد في مجلس النواب الفرنسي صراخ يطالب بتحقيق السلم، من ذلك قول النائب (بروصون) يوم ٢٢ ـ آذار ـ مارس ـ ١٨٣٧ ـ الذي قال: **«إن هذه الحرب أشد ما تكون إضراراً بمصالحنا التي لا يخدمها سوى السلام»**

وكذلك النائب (بيسا كاتوري) الذي نادى بالتعايش السلمي مع الأمير عبد القادر، «لأن السلم هو أفضل وسيلة للقضاء على سمعته». ولم يكن باستطاعة الحكومة الفرنسية تجاهل اصداء تلك الصيحات والنداءات، ورأت أن تعطي دليلاً على رغبتها في محاولة تجربة سياسية جديدة تجاه الأمير عبد القادر، وكان ذلك بتغيير (**كلوزويل**) واستبداله بالجنرال (**دامريمون**) الذي طالما أعرب عن نياته السلمية، حينما كان نائباً في البرلمان. ثم إن السلام مع الأمير عبد القادر سيتيح الفرصة لفرنسا لتجربة ما يسمى (الاحتلال المحدود النطاق) الذي أوصت به (لجنة أفريقية) في سنة

١٨٣٤، تلك الطريقة التي وجدت في الوالي العام الجديد (دامريمون) مؤيداً وداعياً، فقد جاء في رسالة له إلى (جيزوت) بتاريخ (١٠ كانون الأول - ديسمبر - ١٨٣٦) ما يلي:

«إن النظام الوحيد الذي يمكنه أن يؤتي ثماره، هو الاحتلال المحدود النطاق، المتدرج والذي يتم بطريقة سلمية»

والاحتلال المحدود النطاق هو مصطلح سياسي معقد بعض الشيء، ومعناه على وجه التقريب: احتلال النقاط المهمة الواقعة على الشواطىء، وإحاطتها بمناطق يتم تحديدها على أساس اعتبارات تتعلق بالدفاع، وبضرورة توفير التموين للجيش وللسكان والمدنيين. وأما الاستعمار الاوروبي فيكون محصوراً في هذه المناطق التي تقوم السلطات العسكرية بإدارتها مباشرة. وفيما يتعلق بباقي الأراضي غير المحتلة، فهي تترك للأهالي الذين تحاول السلطات الفرنسية تنظيم علاقات تجارية معهم. وهكذا كانت فكرة وجود مملكة عربية تدين بنوع من التبعية لفرنسا، مغرية للكثيرين، من حيث انها حل مؤقت ومرحلة بين الحالة القديمة المضطربة، وحالة بسط السيطرة الاستعمارية في المستقبل على البلد كله.

لقد عينت حكومة باريس الجنرال (دامريمون) حاكمًا عاماً على الجزائر، بهدف البحث عن مخرج سلمي، غير أن ولاية (دامريمون) هذا، على الجيوش الفرنسية المرابطة في الجزائر، كانت في الحقيقة لا وجود لها على الاطلاق، وظهر أن وزارة الدفاع قد بعثت به الى الجزائر لتعمل على تحطيم روحه المعنوية، باعطاء الاسبقية (للجنرال بيجو) في جميع الأعمال. إذ كان (بيجو) بصفته عضواً في البرلمان، وبصفته صديقاً حميًا لوزير الدفاع، وبصفته أيضاً من المقربين لدى حاشية الملك، ومن الملك نفسه، فانه كان يتصرف تصرف المالك في ملكه، وكان يدعي لتغطية كل هفوة من هفواته - أو بالاحرى جريمة من جرائمه - بأنه استأذن الوزارة للقيام بما أجراه من أعمال، في حين لم تكن الحكومة الفرنسية على علم غالباً باجراءاته.

وهكذا كانت ولاية (دامريمون) أقرب الى الرمزية. وكان (بيجو) هو الذي يتولى عملياً ادارة الحرب في الجزائر. ولقد حاول الحاكم العام اشعار الضباط التابعين له بأنه هو المسؤول عن الجنود الفرنسيين في الجزائر، غير أن الضباط وحتى الجنود لم يقرأوا حساباً لأقواله. واعتبروها أقوالاً لا قيمة لها لأن القائد العام هو (بيجو). واستطاع (بيجو) بما له من الدهاء تعيين جواسيس له حتى في مكتب الحاكم العام ليراقب كل أعماله. وشعر الحاكم العام بذلك، غير أنه كان عاجزاً عن التحرر من قبضة (بيجو) الحديدية.

كان للحاكم العام بدوره جواسيسه في مكتب (بيجو) فكان يتابع نشاطاته واتصالاته، ويضع العوائق أمام تحركاته، وأخيراً، أراد (بيجو) حسم الموقف، فطلب إلى (وزارة الدفاع) تكليف القائد (الحاكم العام) بادارة الغزو الفرنسي، أو تكليفه هو بذلك، وأشار الى وزارة الدفاع إعفاءه من عمله لأنه كما قال: «قد بلغ من العمر عتياً، وأن حرب الجزائر قد أتعبته وأنهكت قواه، وأنه ما رضي بالعودة الى الجزائر إلا من أجل المحافظة على المكاسب التي أحرزتها القيادة العسكرية منذ أن بدأت الغزو وحتى الآن». وعلم الحاكم العام بمسعى (بيجو) لعزله، فلم يقف مكتوف اليدين، رغم علمه المسبق بأن (بيجو) قد ينتصر عليه بسبب علاقته الوثيقة بالبلاط الملكي ومجلس الوزراء ووزارة الدفاع. فكتب الى وزارة الدفاع يشكو من تعدي بيجو السافر على القيادة العليا، وتجاهله. وأنه من الضروري الزام بيجو بعدم الاقدام على أمر الا بعد استشارته حسب التقاليد المعمول بها في فرنسا ولدى جميع الدول التي تحرص على تطبيق النظام والانضباط.

كان من الصعب على وزارة الدفاع الفرنسية اتخاذ موقف الحكم بين الرجلين المتصارعين، فطلبت الايضاحات من جميع الوزارات ذات العلاقة بغزو الجزائر، ومتابعة هذا الغزو أو إيقافه، وظهر أنه من العسير على

المسؤولين في الحكومة تبني حل يرضى به الجميع. لاسيما وأن شكاوى (الحاكم العام) أخذت اتجاهاً حاداً بسبب تعنت (بيجو) وصلفه حتى لم يعد بامكانه احتمال ما كان يوجهه إليه (بيجو) من اهانات متتالية. وتسربت الى الصحافة معلومات عن هذا الصراع، مع ما دار في الاوساط الحكومية من مناقشات تؤكد أن آراء العامة في فرنسا كانت متفقة على ترك الجزائر لأهلها، وأن رجال الدولة يرون دوام الحرب إلى النهاية، وأن الجنرال (بيجو) مخير من دولته بمهمة في غاية الخطورة. فاما أن ينقض الهدنة المعقودة بين الأمير عبد القادر، وحاكم وهران السابق (الجنرال دي ميشيل)(٧) وإما أن يثبتها.

لقد كانت هناك ثمة اتصالات بين الأمير عبد القادر والجنرال بيجو،

---

(٧)كان حاكم وهران (دي ميشيل) قد وقع في ٥ شباط ـ فبراير ـ ١٨٣٣ معاهدة مع الأمير عبد القادر تم تبادل وثائقها يوم ٢٦ شباط ـ فبراير، وجاء فيها ما يلي:

١ ـ منذ يوم تحرير هذا الصك يتقرر ترك الحروب والخصومات بين الفرنسيين والعرب، ويعمل كل من دي ميشيل والأمير عبد القادر على القاء الالفة بين شعبين، اقتضت الارادة الإلهية أن لا يكونا تحت سلطة واحدة. ولاجل ذلك يتعين وكلاء من قبل الأمير في وهران ومستغانم وأرزيو، كي لا تقع خصومات بين الفرنسيين والعرب، كما يعين وكيل فرنسا، ضابط فرنسي في (معسكر) ـ مقر الأمير ـ

٢ ـ يصير احترام الديانة الاسلامية.

٣ ـ يلتزم الفريقان برد الأسرى.

٤ ـ اعطاء الحرية الكاملة للتجارة.

٥ ـ يلتزم العرب بارجاع كل من يفر إليهم من العسكر الفرنسي، ويلتزم الفرنسيون برد كل من يفر إليهم من أهل الجرائم الهاربين من القصاص إلى وكلاء الأمير في المدن.

٦ ـ من أراد من الأوروبيين السفر إلى داخل البلاد، يجب أن يكون حاملاً لتذكرة (جواز سفر) تكون عليها علامة (ختم) وكلاء الأمير. ويصححها (يوقع عليها ويختمها) الجنرال. وبذلك يحصل على الحماية في جميع الأقاليم».

وقد أقام ـ دي ميشيل ـ حفلة ساهرة على شرف الوفد الجزائري الذي حمل المعاهدة، ووقعها دي ميشيل بحضور هيئة أركان حربه وبعث الى الأمير عبد القادر بهدية هي عبارة عن (١٠٠) بندقية و(٥٠٠) كيلوغرام من البارود.

المرجع: المقاومة الجزائرية ـ اسماعيل العربي ـ الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ـ الجزائر ـ ص ٥٤ ـ ٥٥ وتاريخ الجزائر ـ مجاهد مسعود ـ الجزء الأول ص ١٧٩.

بدأت في اعقاب معركة (نهر سكيك). فقد كتب الأمير الى (الجنرال بيجو) رسالة لتبادل أسرى الطرفين، يوم ٢٠ تشرين الأول - اكتوبر - ١٨٣٦. فأجاب عليها (بيجو) يوم ٢٥ برسالة جاء فيها:

«... لا يمكنني أن أقبل بتسريح أسراكم مقابل أسرانا من النساء، وقد أشدتم في خطابكم بتقديسكم للمرأة، ولا أخالك تجهل بأننا نحن معشر الفرنسيين نعطي قيمة للمرأة أكبر من أي شعب آخر. وقد تكلمت عن استمرار الحرب فاعلم أننا لن نتأخر عن كفاحكم والاستحواذ على المزارع وغلاتها والحيوانات حتى لا يمكنكم الاعتماد على هؤلاء الجزائريين الذين كنتم تعتمدون عليهم اعتماداً كلياً فيما خضتموه من معارك. وأظن أنكم ستلجؤون إلى الصلح وبذلك نتفادى جميع الأخطاء، ونعيش جيراناً يحتاج بعضهم بعضاً. وإن لم تفكر في ذلك فان أسراكم سيرسلون الى فرنسا، وهناك يتمتعون بالحرية التامة، ويتعلمون أشياء كثيرة حتى يكونوا أعضاء عاملين في المجتمع. وإن امتنعت أنت عن ايجاد حل لمسألة الأسرى، فإنني اقترح على أقارب هؤلاء الأسرى بأن يتفقوا معي. وكل قبيلة تتفق معي، فلا أرى مانعاً من تسريح أسراها».

لقد كان الأمير عبد القادر في حاجة للسلم بمثل حاجة فرنسا إليه، وذلك حتى يتمكن من اعادة تنظيم الدولة، ودعم قدرة جيشه. ويذكر أنه كان قد كتب الى قنصل فرنسا في (طنجة) في شهر شباط - فبراير - ١٨٣٧، في موضوع استئناف المفاوضات. غير أنه استنكر أن يفاتحه (بيجو) في موضوع الصلح، وهو ليس اكثر من حاكماً (لوهران) في حين كان (دامريمون) هو الحاكم العام، وهو المرجع الأعلى. غير أن (بيجو) كان قد كتب رسالة الى وزير الحربية الفرنسي بتاريخ (١٦ - آذار - مارس-١٨٣٧م من بلدته في مدينة (اكسيدوي) - وتضمنت الرسالة عزمه على عرض السلام على الأمير، بعد موافقة الوزارة عليه. وقد ضاعت هذه الرسالة، غير أن الرسالة التي بعث بها (بيجو) الى الأمير عبد القادر، من وهران، وذلك بعد عودته الى الجزائر بتاريخ ١٢ - نيسان - ابريل - تمثل الصيغة

النهائية التي وافقت عليها الوزارة لمفاتحة الأمير في امكان عقد الصلح. وقد جاء في الرسالة ما يلي:

«... أستطيع أن أعرض عليك السلام بصراحة نبيلة، لأنني أحس في نفسي بقوة تامة: بتكوين جيشي، وبنشاطي وحيويتي الشخصية. إن قواتي في هذه المرة تبلغ ثلاثة أضعاف قوتي في السنة الماضية... والفرنسيون يشبهون الرومان، لأنهم لا يعقدون الصلح إلا حينما يشعرون بالقوة... وإذا كنت تنصت الى صوت الإنسانية والحكمة، فابعث إليَّ برجال تثق بهم ليحملوا إلي مقترحاتك، لكي أحولها إلى ملك الفرنسيين».

عقد الأمير عبد القادر مؤتمراً ضم القادة والشيوخ والزعماء، وتقرر بالاجماع الموافقة على اجراء مفاوضات الصلح، غير أن أحد العلماء قال للأمير: «إن المتاعب التي رأيناها من بيجو وكلوزويل ودوران وترزيل هي أننا عقدنا مع دي ميشيل معاهدة، وهي لا تخص إلا ولاية وهران. ولكي تكون هذه المعاهدة شاملة، لا بد أن يوافق عليها الحاكم العام للجزائر، ولذا نرى أن نكاتب رأساً الماريشال دامريمون، وهو أقل طيشاً من بيجو، ولربما وافق على ذلك وساعد على أن تكون المعاهدة التي سنرتبط بها معه أصلح لنا» ووافق الجميع على هذا الاقتراح.

رد الأمير عبد القادر على رسالة (بيجو) برسالة حملها اليه مندوبه (اليهودي ابن دران) قال فيها: «إنني أشد الناس رغبة في الحصول على العافية، وأشدهم بغضاً لسفك الدماء بدون موجب شرعي، وانها ـ فرنسا ـ لتعلم أنني راغب في عقد الصلح وإقامة دعائمه على أساس قوي لا يتضعضع. ويشهد بذلك ما خابرتها به على يد سفيرها في طنجة. فان ساعدت العناية الإلهية على إجراء هذا الأمر على يدكم، فهو دليل على صفاء طويتكم».

أرسل (بيجو) اعلاماً إلى وزير الحربية الفرنسي، أعلن فيه أنه سيبعث

بشروط الصلح مكتوبة الى الأمير (عبد القادر) عن طريق (اليهودي) ابن دران. وأضاف قائلاً: «ليس لدينا وقت نضيعه، ويجب أن يتم التصديق على معاهدة السلام قبل مرور عشرين يوماً» وكان تاريخ الرسالة هو يوم (٢١ ـ نيسان ـ ابريل ـ ١٨٣٧). وفيما يتعلق بالشروط التي تنص عليها المعاهدة، فقد أكد بيجو أنه يستطيع الحصول على اعتراف الأمير بسيادة فرنسا، ويحصر مملكته في (ولاية وهران) الخ... وقد بعث (بيجو) بهذه المقترحات مع ـ ابن دران ـ الى الأمير. ولكن الأخير لما اطلع عليها، صعب عليه قبولها، فأعادها الى (بيجو) قائلاً: «... **والمسلمون لا يرضون أن يكونوا تحت حكم الافرنج، فان كانت دولة فرنسا تريد اخضاعهم بالقوة، فدون ذلك حرب طويلة الذيل، مديدة السيل!»**.

كان محك النزاع في الشروط الفرنسية، هي السيادة على ولاية تيتري التي أصر الأمير على الاحتفاظ بها بحيث انها تدين له بالولاء، كما شرح ذلك ـ ابن دران ـ (لبيجو) شفاهياً. هذا من جهة، ومن جهة ثانية، فقد ساور الأمير عبد القادر قلق، حيث كان يتساءل: كيف يمكن لضابط تنحصر سلطته في ولاية (وهران) أن يتفاوض باسم (ملك فرنسا ـ لويس فيليب)[٨] لعقد معاهدة بشأن الأراضي الجزائرية كلها، وذلك مع وجود وال عام مزود بسلطة سياسية ويمثل الملك في الجزائر. وهكذا كان من

---

(٨)لويس فيليب: (LOUIS - PHILIPPE 1ER) ابن فيليب ايغاليتي ـ المساواة ـ ولويز دو بوربون. من مواليد باريس (١٧٧٣ م) ملك فرنسا (١٨٣٠ ـ ١٨٤٨) مات في كليرمونت بانكلترا سنة ١٨٥٠ م. كان له دور مجيد في معركتي (فالمي) و(جيماب) سنة ١٧٩٢، عاش حياة غامضة ثم تزوج من (ماري ـ اميلي دو بوربون) ودخل فرنسا في عهد الملك لويس الثامن عشر، ونودي به قائداً عاماً لقوات المملكة سنة ١٨٣٠، ثم ملكاً لفرنسا في ٧ ـ آب ـ اغسطس ـ من السنة ذاتها بعد تعديل الدستور. تميز عهده بكثرة الاضطرابات والثورات التي تمكن من قمعها بالقوة، استعان في البداية بالليبراليين ـ من امثال (ثيير) ثم استبدله برئيس الوزراء جيزو (GUIZOT) في سنة ١٨٤٠. اثارت سياسته الخارجية وتحالفه مع انكلترا نقمة الشعب الفرنسي، الذي عانى ايضاً من الاضطرابات الداخلية فانفجرت ثورة عامة أرغمته على التخلي عن الملك، والهرب الى انكلترا ـ من الباب الخلفي لقصر التويلري ـ.

الطبيعي أن يكتب الأمير الى الجنرال (دامريمون) الحاكم العام، ويسعى للتفاوض معه مباشرة. وبعد ذلك جاءه الرد من (دامريمون) وفيه: «لو كانت رسالتكم اكثر وضوحاً، ولو أحاطتني علمًا بنواياكم ومشاريعكم لأمكنني أن أبعث إليكم، كما رغبتم في ذلك، بشخص مطلع رزين، ليتباحث معكم في مصلحة الطرفين». وقام (اليهودي ابن دران) بدور قذر، إذ ذهب الى (بيجو) وأبلغة: «أن (دامريمون) على وشك الاتفاق مع الأمير، وإن اتفق معه، فستجدون أنفسكم بمعزل عن العملية، وسيحرز ـ دامريمون ـ كل الشرف، وأرى أن معالجة هذه المشكلة ممكن إذا كاتبتم وزارة الدفاع وشرحتم لها الوضع، وطلبتم منها أن تأمر دامريمون، بعدم الاهتمام بهذه المعاهدة، لأنه يجهل سياسة الأمير، ودهاءه، وانكم أنتم الذين قمتم في وجهه يمكنكم أن تعقدوا معه معاهدة تكون لصالح فرنسا».

شكر (بيجو) هذا الجاسوس اليهودي على (أفكاره النيرة) وبعث رسالة الى وزارة الحرب بتاريخ ٥ أيار ـ مايو ـ ١٨٣٧، جاء فيها: «كانت وجهة نظر الأمير قد اقتربت من وجهة نظري، غير أنه لما رأى ـ أي الأمير ـ تلهف الحاكم العام على تحقيق السلام، تراجع عن مواقفه السابقة وأبدى تصلباً». وفي اليوم ذاته، كتب (بيجو) إلى (دامريمون) رسالة شديدة اللهجة، يتذمر فيها من الاتصالات الى جرت بينه وبين الأمير، ويعلن إليه فيها أن مساعيه تعتبر تدخلاً فيما لا يعنيه، ثم يقول: «قبلت تولي قيادة ولاية وهران، كما تعرف، بشرط أن أكون حراً مستقلاً في تصرفاتي وأقوم بتسيير الأمور كما يتراءى لي، وأن أقرر بنفسي فيما يتعلق بالحرب والسلم، وأنتم قد قبلتم هذا الشرط في مجلس الوزير. وأحب أن أوضح أن زحف الأمير على المدينة والمناطق الشرقية، انما هو نتيجة لمفاتحة الوالي العام للأمير في عقد الصلح مما ترك في نفسه انطباعاً بأن فرنسا تريد السلام بأي ثمن». واختتم ببجو رسالته متهمًا الحاكم العام بأن تصرفاته تتناقض مع أبسط قواعد السياسة.

تحركت وزارة الدفاع الفرنسية، فأرسلت الرد برقياً إلى (بيجو) بالموافقة على اقتراحاته، وفي اليوم ذاته بعثت وزارة الدفاع كتاباً تنكر على (دامريمون) تدخله في هذا الأمر، وتأمره بأن يساعد (بيجو) للوصول هذا الهدف ان طلب منه أية مساعدة، وكان في رسالة وزير الحرب له:

«انه غير خفي على حضرتكم ما جرت به المخابرة بيني وبين الجنرال (بيجو) حاكم وهران، في عقد الصلح والعدول عن الحرب التي ألحقت الضرر بالأمتين، وحيث انني وجدت مطمح الانظار بعيداً عن المطلوب، وفهمت منكم ميلكم لوضع حد فاصل لنوائب الحرب، وإني أعتقد موافقتكم» ولم يسع (دامريمون) إلا أن يكتب الى الأمير عبد القادر ما نصه: **«لقد أخبرتكم بشديد رغبتي في الصلح، وإلى الآن لم أزل على ذلك، غير أن الحرب والصلح، منوطين بالجنرال ـ بيجو ـ فان وجدتم وجهاً مناسباً لاجرائه معه، فافعلوا، واقبلوا مني مزيد التقدير لمقامكم»**. وعلم (بيجو) برسالة وزير الحرب الفرنسي إلى (دامريمون) فقال معلقاً: «لا أدري كيف يمكن لدامريمون أن يخرج من هذا المأزق الذي أوقع فيه نفسه». وعلى كل حال، فقد أسرع (بيجو) لارسال شروط منقحة للمعاهدة إلى الأمير، وهو لا يزال في (تيتري) يتنازل فيها عن هذه الولاية، وعن جزء من ولاية الجزائر أيضاً. ولكن هذه الترضيات كانت مصحوبة بانذار بأنه إذا لم يقبل هذا العرض، فإن ذلك معناه الحرب. غير أن الأمير عبد القادر لم يكن مستعداً لتقبل الانذارات، فبعث من (تلمسان) مشروعاً مضاداً لمشروعه للمعاهدة. ولما اطلع (بيجو) على مقترحات الأمير، وجد الشقة بعيدة بين موقفي الطرفين، فقرر التخلي عن المفاوضات والالتجاء إلى قوة السلاح. وفي ١٥ ـ أيار ـ مايو ـ ١٨٣٧، غادر (بيجو) وهران ـ متجهاً إلى تلمسان حيث كانت حاميتها تعاني من نقص خطير في المواد الغذائية منذ ستة أشهر، وبعدما مونها اتجه إلى (معسكر تافنه) الذي كلف تحصينه القوات الفرنسية كثيراً من المال والتضحيات، وأمر بهدمه، حيث كان يرى عدم جدواه. وهناك أدرك (بيجو) أن بردعات بغاله قد جرحت ظهورها.

وأصبح من الصعب حمل الأثقال عليها. وفي الوقت ذاته، كان موعد قيام الحملة الانتقامية الجديدة ضد قسنطينة يقترب بسرعة، الأمر الذي كان يفرض عليه توجيه قسم كبير من قواته ووسائطه القتالية لدعم تلك الحملة، مما يجعله عاجزاً عن مواجهة قوات الأمير عبد القادر. وفي تلك الأثناء، بلغت (بيجو) أخبار الأمير واستعداده للجهاد في سبيل الله.

وبينما كان (بيجو) يتأهب للرجوع إلى (وهران) وصل إليه أحد أعيان الحضر من تلمسان. وهو (سي حمادي السقال) وأبلغه أن الأمير على استعداد لادخال بعض التعديلات على مقترحاته الأخيرة لمشروع المعاهدة. ولا سيما فيما يتعلق بالاعتراف بالسيادة الفرنسية والتخلي عن ممارسة سلطانه على المسلمين الذين يقيمون في المدن الساحلية الخاضعة للاحتلال.

وإثر ذلك، اتفق الطرفان على عدم استئناف القتال، قبل أن تنتهي المفاوضات الجارية بطريقة ايجابية أو سلبية. كذلك استمرت الاتصالات بين الفريقين خلال الفترة التي تمتد بين ٢٤ ـ ٣٠ أيار ـ مايو ـ عن طريق (حمادي السقال ـ الذي أخذ الآن في ممارسة دور اليهودي ابن دران) بشأن وضع الصيغة النهائية لبنود المعاهدة، وعلى الرغم من أن المناقشات التي سادت هذه الاتصالات كانت حادة في بعض الحالات، فان الرغبة التي كانت تحدو الطرفين ومصلحتهما في استتباب السلم قد تغلبت في نهاية الأمر على الخلافات، وبذلك تم توقيع المعاهدة التي تحمل اسم النهر الذي هزم عند مصبه الجيش الفرنسي (تافنة) منذ سنة وذلك في ٣٠ من شهر أيار ـ مايو ـ ١٨٣٧ م.

صادق ملك فرنسا (لويس فيليب) معاهدة (تافنه) يوم ١٥ حزيران ـ يونيو ـ ١٨٣٧ م.

كان لا بد لحاكم الجزائر (دامريمون) من أن يهاجم الاتفاقية التي لم يشترك في صنعها، فكتب رسالة إلى رئيس الوزراء الفرنسي بتاريخ ٢٥ ـ

حزيران ـ يونيو ـ ١٨٣٧ م جاء فيها: «ما معنى هذه السيادة الفرنسية؟ انها كلمة جوفاء، ما دامت فرنسا تعامل الأمير على قدم المساواة، وتجعل منه السيد الفعلي للبلد، باستثناء قطعتين من الأرض احتفظت بهما لنفسها. . . وفيما يتعلق بسيادته على المسلمين الذين يعيشون في المناطق المحتلة، فقد أبدى الأمير في هذا الموضع كثيراً من التشدد أثناء المفاوضات، ولكنه تنازل عن هذه السيادة واكتفى بالحصول على ضمانات بشأن ممارستهم الطقوس الدينية بحرية، تحت رعاية رجال الدين المحليين. وأما الضريبة السنوية التي كان الفرنسيون يصرون عليها دائماً في الماضي، باعتبارها رمزاً للتبعية، فقد نجح الأمير في أن يجعلها مجرد منحة واحدة من القمح والشعير والثيران، ولا تتكرر في كل سنة». وعلى كل حال، فان المعاهدة في الوقت الذي تمنح فيه الأمير مركزاً دولياً، وتدعم سلطانه في الداخل، تجعل منه القوة الوحيدة التي تواجهها فرنسا في هذه البلاد. وهذا الوضع الذي يمثل انتصار العقل على العاطفة، كان في صالح فرنسا أيضاً. وهذه الحقيقة أدركها (بيجو) جيداً، وأعرب عنها بوضوح حين يقول في رسالة بتاريخ ٢٥ حزيران ـ يونيو ـ الى وزير الحربية، رداً على بعض الانتقادات التي وجهت اليه:

«. . . إن الأخطاء والأوهام السابقة، هي التي سمحت بظهور الرجل الذي أثار الوطنية العربية. ثم إنني أجدني أبعد ما أكون عن اعتبار ذلك من سوء حظ فرنسا. فماذا تصنع فرنسا بقيام قوميات متعددة، وبتقسيم العرب الى قبائل»

٤ ـ معاهدة تافنة

بين الجنرال بيجو قائد الوحدات الفرنسية في مقاطعة وهران، وبين الأمير عبد القادر، تم ابرام المعاهدة التالية:

المادة الأولى: يعترف الأمير بسلطة فرنسا في الجزائر.

المادة الثانية: يبقى لفرنسا في إقليم وهران: مستغانم ومزغران وأراضيها، ووهران وآرزو وأراضيها. يحد ذلك شرقاً: نهر المقطع والبحيرة التي يخرج منها جنوباً بخط ممتد: من البحيرة المذكورة فيمر على الشط الجاري إلى الوادي المالح على مجرى نهر سيدي سعيد، ومن هذا النهر إلى البحر. بحيث يصير ضمن كل ما في هذه الدائرة من الأراضي للفرنسوية. وفي إقليم الجزائر: مدينة الجزائر مع الساحل وأرض متيجة. يحد ذلك شرقاً: وادي القدرة وما فوقه. وجنوباً رأس الجبل الأول من الأطلس الصغير إلى نهر الشفة مع البليدة وأراضيها. وغرباً: نهر الشفة إلى كوع مزغران. ومن ثم بخط مستقيم إلى البحر، فيكون ضمنه: القليعة مع أراضيها، بحيث يصير كل ما في هذه الدائرة من الأراضي للفرنسوية.

المادة الثالثة: على دولة فرنسا أن تعترف بامارة الأمير عبد القادر على إقليم وهران وإقليم تيطري، والقسم الذي لم يدخل في حكم فرنسا من إقليم مدينة الجزائر لجهة الشرق بحسب التحديد المعين في المادة الثانية. ولا يسوغ للأمير أن يمد يده لغير ما ذكر من أرض الجزائر.

المادة الرابعة: ليس للأمير حكم ولا سلطة على المسلمين من أهل البلاد المملوكة لفرنسا. ويباح للفرنسويين أن يسكنوا في مملكة الأمير، كما أنه يباح للمسلمين أن يستوطنوا في البلاد التابعة لفرنسا.

المادة الخامسة: إن العرب الساكنة في الأراضي الفرنسوية تمارس ديانتها بحرية تامة. ولهم أن يبنوا جوامع، بحسب مرتبهم الديني، تحت رئاسة علماء دينهم الاسلامي.

المادة السادسة: على الأمير أن يدفع للعساكر الفرنسوية: ثلاثين ألف كيلة من الحنطة ومثلها من الشعير بمكيال وهران. وخمسة آلاف رأس بقر، يؤدى ذلك كله في مدينة وهران على ثلاثة قسوط. الأول من غرة آب ـ اغسطس ـ الى الخامس عشر من ايلول ـ سبتمبر ـ والقسطين الآخرين يدفع بانتهاء كل شهرين قسطاً.

المادة السابعة: يسوغ للأمير أن يشتري من فرنسا البارود والكبريت وسائر ما يحتاجه من الأسلحة.

المادة الثامنة: إن ـ الكول أوغلي ـ الذين يريدون أن يقيموا في تلمسان أو غيرها من المدن الاسلامية، لهم أن يتمتعوا بأملاكهم بكامل الحرية. ويعاملون معاملة الحضر. والذين يريدون منهم الانتقال إلى الأراضي الفرنسوية، تكون لهم الرخصة على بيع أملاكهم أو ايجارها بكل حرية.

المادة التاسعة: على فرنسا أن تتخلى للأمير عن (أسكلة رشكون) ومدينة (تلمسان) و(قلعة المشور) مع المدافع التي كانت فيها قديماً. ويتعهد الأمير بنقل الذخائر الحربية والأمتعة العسكرية التي للعساكر الفرنسوية في تلمسان إلى وهران.

المادة العاشرة: المتجر (التجارة) يكون حراً بين العرب والفرنسوية. وللجميع أن يتمتعوا بالتبادل في كل من الأرضين.

المادة الحادية عشرة: تُكَرَمْ الفرنسوية عند العرب، كما تُكَرَمْ العرب عند الفرنسوية. وكل ما تملكته أو تتملكه الفرنسوية من الأملاك في بلاد العرب يكفل لهم حفظه بحيث يتمتعون به بكل حرية ويلتزم الأمير بأن يدفع لهم الضرر الذي تحدثه النوائب فيها.

المادة الثانية عشرة: يكون رد المجرمين بين الطرفين بالتبادل.

المادة الثالثة عشرة: يتعهد الأمير بأن لا يعطي أحداً من الدول الأجنبية قسماً من الشاطىء إلا برخصة من فرنسا.

المادة الرابعة عشرة: لا يسوغ بيع من محصولات أو لوازم الاقليم ولا شراء، إلا في أسواق الفرنسوية.

المادة الخامسة عشرة: لدولة فرنسا أن تعين في المدن التي في مملكة الأمير، وكلاء ينظرون في أشغال الرعايا الفرنسوية، وحل المشكلات التجارية فيما بينهم وبين العرب. وكذلك للأمير أن يضع وكلاء من طرفه في المدن التي تحت إدارة دولة فرنسا.

حرر في تافنا في السادس من ربيع الأول سنة أربع وخمسين ومائتين وألف (١٢٥٤ هـ) وأول يونية (جوان) سنة ثمان وثلاثين وثمنمئة وألف (١٨٣٨ م)(*).

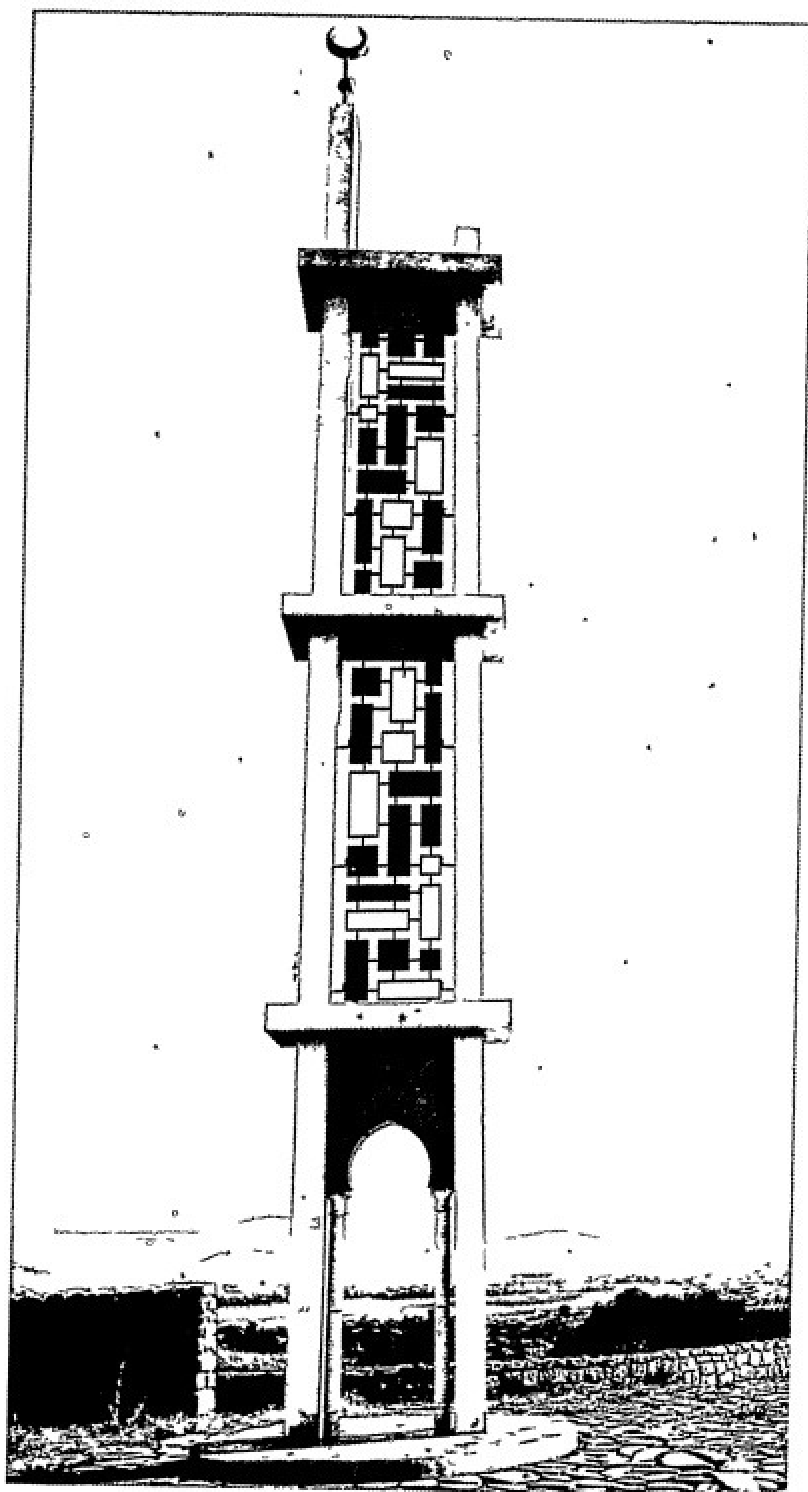
٥ ـ قراءة في المعاهدة.

كتب الجنرال (بيجو) الى الحاكم العام للجزائر (دامريمون) رسالة يوم ١٨ حزيران ـ يونيو ـ ١٨٣٧ (أي بعد تصديق الملك لويس فيليب على المعاهدة بثلاثة أيام فقط) ما يلي:

«... يبدو أنك تعتقد أن في وسع الأمير ـ عبد القادر ـ أن يطلق إرادته في الاتجاه الشرقي، وأن ذلك محظور علينا نحن. يخيل إلي، يا سيدي الجنرال، أنك لم تتمعن في قراءة مضمون المعاهدة، لأن هذا المضمون هو عكس ما تعتقِده بالضبط: لا توجد حدود لنا في شرق الجزائر، لأن هذه الحدود تمتد حتى وادي خضراء ـ وما وراءه».

تظهر هذه الرسالة أن (بيجو) قد فهم بنود المعاهدة على طريقته الخاصة، وأنه فسرها تفسيراً مغايراً لمضمونها، وذلك من قبل أن يجف المداد الذي كتبت به. وبكلمة اكثر وضوحاً، فقد كانت نوايا الغدر

(*) المرجع: الأمير عبد القادر ـ سلسلة الفن والثقافة (٧) وزارة الاعلام والثقافة ـ الجزائر ماي ـ ١٩٧٤ ص ٣٤ ـ ٣٩ والمقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر ـ اسماعيل العربي ـ الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ـ الجزائر ـ ص ١٥٢ ـ ١٥٣



نصب تذكاري في عين المكان الذي صدّق فيه على معاهدة تافنة

في السادس والعشرين من شهر صفر سنة ١٢٥٣ الموافق لفاتح
يوليو سنة ١٨٣٧ وعلى الساعة الثالثة مساءً غداة التوقيع على
معاهدة تافنة التي اعترفت فرنسا بمقتضاها بالدولة الجزائرية
الحرة السيدة تقبل الأمير عبد القادر بهذا المكان ووسط
جيوشها آيات التكريم والإجلال من الجنرال بيجو قائد
الجيوش الفرنسية النازلة بمنطقة وهران

لوحة منقوشة تشير إلى تاريخ التوقيع على معاهدة تافنة

متوافرة منذ البداية، وطالما أن هذه النوايا موجودة فقد كان من السهل على السلطات الاستعمارية العثور على الذرائع المناسبة لخرق بنود المعاهدة وانتهاكها. ولكن، وقبل الوصول الى الطرائق والاساليب والذرائع التي تم اعتمادها لعملية الغدر بالمعاهدة، قد يكون من المناسب التوقف عند بعض الاحداث والتي تلقي الضوء على مجموعة الظروف التي أحاطت بعقد المعاهدة.

بعد توقيع المعاهدة بثلاثة أشهر، بعث ملك فرنسا بهدية رمزية الى الأمير عبد القادر، وهي بادرة كانت تستهدف تدعيم السلام بين الشعبين، وتعزيز العلاقات مع الأمير عبد القادر. والهدية عبارة عن عدد من الأسلحة المرصعة بالجواهر، وأقمشة من الحرير مطرزة بالذهب، وأوان من الفخار المصنوع في (سيفر) منقوشة بالفضة، وصحن من الفضة، وطقم شاي مصنوع من الذهب وساعة من الذهب. وليس ذلك الا دعمًا لمجهود (بيجو) الذي حصل على الصلاحية المطلقة التي منحها ملك فرنسا وحكومتها ووزير دفاعها لعقد المعاهدة - بما في ذلك الاتفاق السري - الذي لم يعلن عنه، غير أن المعلومات لم تلبث أن تسربت، بفضل ظروف طارئة.

كان الأمير عبد القادر قد جعل في جملة شروطه للتوقيع على المعاهدة الحصول على (٣) آلاف بندقية وألف قنطار من البارود، وأن تكون الاسعار مماثلة لما كانت عليه من قبل وأن تكون البنادق من الطراز الجديد. كما طلب الامير الى الجنرال (بيجو) أن يتكفل بذلك كتابة، وأن يكون الالتزام موقعاً برسالة - بخطه - وموقع عليها بخاتمه. وأن تسلم المواد المطلوبة في أمد أقصاه ثلاثة أشهر. ويجب على الدوائر - انصار فرنسا - أن يرحلوا الى الأماكن المعينة لهم. وقد أرسل (بيجو) التعهد المطلوب برسالة أخبر فيها الأمير بنجاح مسعاه. وان الرسالة التي بعث بها المستشار المدني لوزارة الدفاع في ٢٣ آب - أغسطس - ١٨٣٧، تنص صراحة على وجود هذا الاتفاق السري الذي أنكر (بيجو) وجوده لأن الرأي العام في فرنسا

قد اهتاج، واعتبر أن هذا الاتفاق يمس بكرامة فرنسا في الجزائر، وأنه يسبب لها متاعب كثيرة. وقد سئل (بيجو) عن مضمون هذا الاتفاق السري، فأنكره، غير أن الجنرال (بروسارد) قائد منطقة (وهران) الذي كان على علم بوجود هذا الاتفاق قد أخبر وزارة الدفاع بذلك، وأراد بيجو أن ينتقم منه، فاتهمه بتبذيد الأموال التي أئتمن عليها، كما اتهمه بالخيانة. وكانت النتيجة أن عرض الجنرال (بروسارد) على محكمة عسكرية عقدت جلساتها في (بيربينيان) ودافع (بروسارد) عن نفسه بقوة، وأتى بالبراهين الحاسمة على أن الاتفاقية التي يطالب الأمير بتنفيذها موجودة حقيقة. وأنه قد سبق له أن اطلع على رسائل مكتوبة بخط يد الجنرال فيما يخص هذا الاتفاق السري. كما صرح أمام المحكمة العسكرية بأن بيجو كان يتقاضى رشاوى من التجار الذين يتعاملون مع الجيش، وأنه تلقى (١٢) ألف فرنك من تاجر اسباني في مقابل افشائه معلومات عن وشوك استتباب السلام، استغلها التاجر لعقد صفقة مربحة تقاسم ريعها مع القائد العظيم. وأنه سبق أن طلب (بيجو) من الأمير مبلغ نصف مليون فرنك ليسلم له تلمسان. وكذلك اعترف (بيجو) أنه طلب الى الأمير مبلغ (١٠٠) ألف فرنك باتفاق مع (مولي) رئيس الوزراء. وبأنه أخذ بدلاً من (١٠٠) ألف فرنك (١٠٠) ألف بوجو، أي ما يساوي (١٨٦) ألف فرنك باعتبار الفارق بين سعر العملتين. وقد حاول (بيجو) الدفاع عن سلوكه الشائن بقوله انه أراد توزيع مبلغ (٨٠) ألف فرنك على جنوده. وأن يعطي اليهودي ابن دران مبلغاً لقاء خدماته لفرنسا، وأن يقدم الى الجنرال (بروسارد) مبلغ (١٠) آلاف فرنك. وكذلك أعلن أمام المحكمة ندمه وتوبيخ ضميره وأدان نفسه قائلاً: «إنني أصرح أمام الضباط الشبان الحاضرين هنا، بأن سلوكي مشين، وأن عملي يتنافى مع نبل القيادة وكرامتها». الأمر الذي حمل ـ ادوارد كات ـ على القول: «إن المجد العسكري الذي ناله ـ بيجو ـ لا يمكن ان يغفر للرجل كونه نذلاً»(*).

(*)تاريخ الجزائر ـ مجاهد مسعود ـ ٢٧٧ ـ ٢٨٠ والمقاومة الجزائرية ـ اسماعيل العربي ـ ص ١٥٨ ـ ١٥٩.

يؤكد ذلك الحقيقة المعروفة عن ارتباط عملية الغزو الاستعماري بالمغامرة الفردية. وهو ما يمثله افضل تمثيل المغامر (الجنرال بيجو) الذي سار نحو هدفه مدفوعاً بطموحاته الفردية ونوازعه ـ غير الشريفة أو النبيلة ـ ضمن إطار المخطط الاستعماري العام. فالحكومة الفرنسية كانت على بينة من الأوضاع في الجزائر، وقد رسمت الخطة للجنرال (بيجو) لحل المأزق الذي وصلته عملية الاستعمار. إذ كان وضع فرنسا في الجزائر سيئاً للغاية بعد سبع سنوات من الصراع المرير، حتى ان سيطرتها لم تتجاوز حدود الموانىء والمناطق القريبة إليها. ولقيت القوات الفرنسية في سنة ١٨٣٦ متاعب كثيرة في (قسنطينة) حيث مني جيشها بالفشل الذريع، وتكبد خسائر فادحة في الأموال والأرواح. وتعرض (بيجو) ذاته للحصار في (تافنه). وخضعت تلمسان لحصار دام مدة طويلة. وكان (بيجو) عاجزاً عن القيام بهجومين في وقت واحد، الأول ضد (أحمد باي) حاكم قسنطينة، والثاني ضد الأمير عبد القادر، هذا على الرغم من الدعم الكبير الذي تلقاه من الحكومة الفرنسية (وهو ١٥ ـ ألف جندي) علاوة على تأييد قبائل الدوائر والزمالة. وبما أن (أحمد باي) كان رافضاً لكل اتفاق مع الفرنسيين، وممتنعاً عن كل تفاهم معهم، فكان الخيار الوحيد هو الاتفاق مع الأمير عبد القادر، ولم يكن يهم الحكومة الفرنسية الوسيلة المؤدية الى ذلك، إذ ان كل الوسائل المؤدية الى الهدف هي وسائل مقبولة ومشروعة من قبل فرنسا الاستعمارية.

وهكذا، وعلى الرغم مما هو مزعوم من جهل رئيس وزراء فرنسا جهلاً تاماً بالاتفاق السري الذي عقده (بيجو) مع الأمير عبد القادر، وتقاضى مقابله رشاوى، وظفها أو استخدمها على حد زعمه لدعم مصالحه، وفي الواقع فان اعتراف بيجو ببعض التهم الملصقة به، وإنكار البعض الآخر، قد سبب له انهياراً معنوياً، ونال من كرامته، غير أن الحكومة الفرنسية عملت على حمايته طالما أنه حقق الهدف المطلوب، وطالما أن عمله قد تركز لدعم قدرته الانتخابية، إذ ان وجود (بيجو) نائباً في البرلمان، كان يدفعه

للبحث عن الوسائل لتأمين مصالح اولئك الذين انتخبوه. وكانت مصالح هؤلاء مرتبطة بانتصـار فرنسا في الجزائر، مع ما يتبع ذلك من تأمين لمتطلبات الاستعمار الاستيطاني، مثل شق الطرق، وتخفيض الضرائب، وتوفير الضمانات للاستيطان، وقد جاءت المعـاهدة لتضمن ذلـك، ولتضمن أيضاً اعتراف الأمير بالوجود الفرنسي في الجزائر، وهو اعتراف حرصت فرنسا طويلاً على الحصول عليه. ثم أخذت في العمل لخرق المعاهدة والتنكر للاتفاق السري، والزعم أنه لا وجود لوثيقة هذا الاتفاق.

هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية، فإن الأمير عبد القادر لم يطالب (بيجو) بتنفيذ الاتفاقية السرية بعنف وشدّة. ولكنه كان يعمل على أن يذكر (بيجو) للوفاء بعهده في الوقت المناسب. وكان يرى أن الحصول على الأسلحة هو أمر يزيد من قوته، ويسمح له بأن يجابه بيجو وغيره فيما إذا قررت الحكومة الفرنسية إلغاء المعاهدة واستئناف الحرب. غير أن (بيجو) تظاهر بالعجز عن تنفيذ الاتفاقية السرية بصورة تامة، حتى ضاق الأمير ذرعاً بعدم وفاء (بيجو). وبلغت مماطلة الفرنسيين حدها عندما تجاوزت المراوغة الفرنسية فترة سنتين. فاستدعى (الأمير) سفير فرنسا إلى مقره في (معسكر)، وأخبره «بأن الرؤساء الفرنسيين لم ينفذوا الاتفاقيات بحجة عدم وجودها، والحقيقة هي أن الاتفاقية موجودة، وأني محتفظ بأصلها، وهي بخط يد الجنرال وموقعة منه» وفي الوقت ذاته، وجه الأمير عبد القادر رسالة إلى ملك فرنسا ـ لويس فيليب ـ جاء فيها: «يزعم قادتك بأني لم أنفذ الشرط الأول من ـ اتفاقية تافنه ـ وأجيب على ذلك، بأن تأخير تنفيذ الشروط التي التزمت بها يرجع سببها لعدم تنفيذ الشروط التي التزم بها ـ بيجو ـ وهي تسليم البنادق المذكورة بتفصيل في العقد السري. وعلاوة على ذلك فإن الاتفاقية تنص على أن الشخصيات التي تنتمي لقبائل الدوائر والزمالة والتي عملت كثيراً من أجل ايجاد خلافات بيني وبين قادة فرنسا، كان يجب أن يطردوا من البلاد، منذ أمد بعيد وإلى الآن أراهم في أماكنهم، كأن الاتفاقية غير موجودة بتاتاً. وأفهم من هذا أن ـ بيجو ـ يظن

بأن الاتفاقية السرية ضاعت، وطبعاً إن الملك قد أطلع رئيس الحكومة والوزراء على الرسائل التي جاءته من الأمير، وطلب من الجميع أن يجدوا حلاً لهذه المشكلة من دون أن يغضبوا الأمير أو يسيئوا إلى سمعة ـ بيجو ـ إلخ...».

إقراراً بالواقع، لقد حاول بيجو الوفاء بالتزامه للأمير عبد القادر، غير أن الحكومة الفرنسية وجدت أن دوره في هذه المرحلة على الأقل قد انتهى، فعملت على سحبه من الجزائر مؤقتاً حتى تنجز المرحلة التالية وهي تدمير إحدى قاعدتي الصمود (القسنطينة) وعند ذلك تأتي المرحلة التالية في دور (بيجو) وهي مرحلة الاجهاز على (معاهدة تافنة) والقضاء بالتالي على قاعدة الصمود الثانية ـ قاعدة الأمير عبد القادر في (معسكر).

٦ ـ الطريق الى الحرب

ما أن فرغ (بيجو) من عقد (معاهدة تافنه) حتى بعث بالجند الذي كان عنده في وهران الى الجزائر حيث تولى الحاكم العام (دامريمون) قيادة القوات لفتح (قسنطينة). وبعد معارك ضارية استمرت ستة أيام، قتل خلالها الحاكم العام وتولى القيادة معاونه (الجنرال فالي)[٩] وأمكن للقوات الفرنسية بعدها الاستيلاء على (قسنطينة) وخرج (الحاج أحمد باي)[١٠]

---

(٩) الجنرال فالي: (SYLVAIN CHARLES VALEE) ماريشال فرنسا. (١٧٧٣ ـ ١٨٤٠) من مواليد بريين لوشاتو. تولى قيادة الهجوم لاحتلال قسنطينة (سنة ١٨٣٧).

(١٠)الحاج أحمد باي: تولى إمارة (بايليك قسنطينة) سنة ١٨٢٧ م. وكان كرغلياً (من أب تركي وأم جزائرية). وقف الى جانب والي الجزائر عندما بدأ الغزو الفرنسي. ثم انسحب الى مركز ولايته بعد فشل المقاومة، ودخول القوات الفرنسية الى الجزائر. واشتهر بكفاءته العالية في ادارة بلاده، واعدادها للحرب، وقد أمكن له بفضل ذلك احباط كافة محاولات الفرنسيين لبلاده. كما كان خصمًا عنيداً للأمير عبد القادر، إذ كان يرى فيه دعياً للسلطة منتحلاً لها. وقد نجح الفرنسيون في الاستيلاء على عاصمة الاقليم (قسنطينة) سنة ١٨٣٧ فمضى يتنقل من قرية الى قرية، ومن السهل الى الجبل، ورفض كل الاغراءات التي عرضتها عليه فرنسا للاستسلام والقاء السلاح، مقابل اعادة أمواله إليه، واعطاءه حريته في اختيار البلد التي يرغب فيها موطناً لاقامته، حتى اذا استسلم اخيراً لفرنسا سنة ١٨٤٨، بعد أن ضعفت مقاومته، فرضت عليه فرنسا الاقامة الاجبارية في الجزائر. ولم يلبث أن توفي سنة ١٨٥٠ م في ظروف غامضة وقبره الآن في زاوية (سيدي عبد الرحمن الثعالبي) وسط مدينة الجزائر.

ليتابع جهاده سنوات أخرى من الصراع المرير. وعاد بعدها (فالي) ليتولى أمر خرق (معاهدة تافنة).

هنا لا بد، وقبل كل شيء، من القول بأن (معاهدة تافنة) قد كتبت باللغتين العربية والفرنسية، وقد درس النص من قبل الحكومة الفرنسية قبل رفع المعاهدة الى الملك الفرنسي للتصديق عليها، وقد طبعت من النص العربي نسخ كثيرة في (باريس) وقد طلب (بيجو) ذاته الى الحكومة الفرنسية أن تبعث إليه بعدد كبير من النسخ لتوزيعها في الجزائر لأغراض الدعاية (مما يدل على أن النص العربي كان محتفظاً به في باريس) وقد قامت الادارة الفرنسية في الجزائر، فعلاً، بتعليق النص العربي على الجدران في مدينة الجزائر، ولكنها لما اكتشفت أن هذا النص لا يسمح لفرنسا بتجاوز (وادي الخضراء) حيث يشتمل على كلمة (فوق الوادي) سارعت الى سحب تلك المناشير وتمزيقها. ثم زعمت فرنسا بأن النص العربي مفقود، وأنه لا وجود له، وذلك حتى يتم الاعتماد على النص الافرنسي الذي يمكن تفسيره بما يتوافق مع المخططات التوسعية الفرنسية. وإن النص الذي سبق عرضه، هو النص الذي نشرته المجلة الأفريقية في عددها ٤٢٢ ـ ٤٢٣ (ص ٨٥ ـ ١٠٠) هو نص وضعته فرنسا بعد ذلك، باللغة العامية ـ وهو ما لم يكن يفعله الأمير، علاوة على أن هذا النص لا يحمل أي توقيع أو خاتم. مما يؤكد أنه ترجم ترجمة سيئة عن النص الفرنسي.

المهم في الأمر أن الخلاف قد بدأ من تفسير كلمة (عند النهر وما وراءه) فبينما ذكر النص العربي أن حدود الأراضي التي تحتفظ بها فرنسا شرقاً تقع قبل (وادي الخضراء ـ أعالي وادي بودواو) فاذا بالنص الفرنسي، يضعها في شكل مناقض لمنطق اللغة نفسه (عند النهر وما وراءه)(*). واستناداً الى

(*) الكلمة المختلف عليها هي (AU DELA) وترجمتها (وما وراءه) على أن هذه الكلمة ليست هي الكلمة الوحيدة المستعملة في النص الفرنسي للمعاهدة، فهناك كلمة قبل (DEVANT) ويقصد منها أعالي وادي خضرة، حيث يحمل النهر أسماء أخرى، ويذكر ذلك بتمسك اسرائيل بكلمة (أراض عربية محتلة) الواردة في النص الانكليزي من القرار ٢٣٣ الصادر عن مجلس الأمن سنة ١٩٧٣. في

هذه الكلمة، زعم الفرنسيون أن المعاهدة تسمح لهم بالاستيلاء على ولاية (قسنطينة) وضمها الى المناطق التي احتلها الفرنسيون حيث ان الولاية تقع وراء (وادي خضراء). ولم يأخذ الأمير عبد القادر- بداهة - بهذا التفسير، بدلالة أنه اعتبر قيام القوات الفرنسية باختراق مضيق (أبواب الحديد) في تشرين الأول - اكتوبر - ١٨٣٩، بمثابة انتهاك لنصوص المعاهدة، وسبباً موجباً للحرب. وعلى كل حال، فعندما تم التوقيع على معاهدة تافنة، لم تكن هناك مشكلة واضحة فيما يتعلق بتحديد امتداد المنطقة المحتلة شرقاً، إذ ان هذه المنطقة كانت خاضعة لحكم (الحاج أحمد باي). غير أن احتلال الفرنسيين لقاعدة المنطقة الشرقية (ولاية قسنطينة) فتح المجال لتوسع فرنسا نحو المدن الداخلية، كما أن التوسع في هذا المجال أظهر حاجة الجيش الفرنسي إلى تأمين خطوط مواصلاته بين الجزائر وقسنطينة، عبر الطريق الممتد شرقي (وادي خضرة) وتمر (بسوق حمزة - البويرة -) و(مضيق البيبان) و(سطيف). ولما كانت هذه المناطق تابعة للأمير عبد القادر، فقد كان أمام فرنسا واحد من خيارين: فاما أن تحمل الأمير على الدخول في مفاوضات جديدة لتعديل المعاهدة بحيث تستجيب لحاجتها، واما أن تعتبر المعاهدة - بكل بساطة - لاغية، وتتصرف كما لو كانت حرة من جميع القيود. وكان هذا الحل الأخير ينطوي على مشكلة أدبية، وهي أن (معاهدة تافنه) التي سلطت عليها الأضواء واستحوذت على اهتمام الرأي العام الفرنسي لدى عقدها، لم تكن مجرد تدبير محلي وضعه (بيجو) لأغراض تكتيكية، وانما كانت وثيقة التزمت الحكومة الفرنسية والملك باحترامها. ومما زاد الأمر تعقيداً في نظر السلطات الفرنسية، أن الملك لويس فيليب، أبى إلا أن يقيم علاقات رسمية مباشرة مع الأمير عبد القادر، فاستقبل بما ينبغي من الحفاوة بعثة جزائرية على رأسها وزير

حين أن النص الفرنسي يذكر (الأراضي العربية المحتلة) والفارق هو من أجل احتفاظ إسرائيل بقسم من الأراضي العربية التي احتلتها في عدوان ١٩٦٧ م. والاسلوب الاستعماري واحد رغم تقادم الزمن.

خارجية الأمير (ميلود بن عراش) الذي بادل الملك الهدايا الثمينة والمبادرات الودية. هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية فان الأمير عبد القادر لم يكن على استعداد للدخول في مفاوضات جديدة مع الفرنسيين، لأنهم لم يقدموا الترضيات المناسبة، ولأنه لم يكن يعترف لفرنسا بحق احتلالها (قسنطينة)، ولأن التعديل الذي تطلبه فرنسا، تعني اعتراف الأمير لفرنسا ببسط نفوذها على بلاد القبائل الكبرى ومجانة والمناطق الصحراوية الشرقية التي كان الفرنسيون يعملون على بسط نفوذهم فيها، وخلق أعوان وصنائع لهم من أهلها.

كان ـ الماريشال فالي، الذي أصبح الآن حاكمًا للجزائر ـ يدرك خطورة هذا الموقف، ولهذا لجأ الى حيلة هي أقرب الى الخداع منها الى المناورة. إذ أرسل تحذيراً الى الحكومة الفرنسية بعدم الدخول مع (ابن عراش) في مباحثات لتعديل نصوص المعاهدة، ولما حاول (ابن عراش) التعرض للموضوع بناء على توصية الأمير، أبلغه وزير الخارجية الفرنسي: «أنه من المستحسن معالجة الأمر في الجزائر» وعندما عاد (ابن عراش) من فرنسا في ٢٨ حزيران ـ يونيو ـ ١٨٣٨، مر بمدينة الجزائر. فاستوقفه حاكم الجزائر (فالي) وعرض عليه مشروعاً أعده لتعديل (معاهدة تافنه) وخصوصاً المادة الثانية والفقرة التي تتصل منها برسم الحدود الشرقية للمنطقة المحتلة في ولاية الجزائر. ويقضي المشروع بتوسيع هذه الحدود الى الشرق والجنوب معاً، وراء وادي خضرة، ولا يترك للأمير من الولاية سوى جزء من أراضي (بني جعد) و(نوغة). كذلك ينص المشروع على حق فرنسا في إقامة خط بري للمواصلات بين (أرزيو) و(مستغانم). وزيادة على ذلك، فقد حدد المشروع ضريبة جديدة يدفعها الأمير سنوياً لمدة عشر سنوات، بدلاً من الضريبة التي نصت عليها المعاهدة، والتي كان من المتفق عليه أن يدفعها الأمير مرة واحدة، وينتهي أمرها قبل ١٥ كانون الثاني ـ يناير ـ ١٨٣٨ م. وكان هذا المشروع يضمن لفرنسا ضم مساحات شاسعة من الأراضي، كما أنه يجعل فرنسا مسيطرة على ولاية (تيتري) و(المدية).

وطلب (الماريشال فالي) إلى (ابن عراش) التوقيع على المشروع بوصفه وثيقة نهائية. ولكن هذا امتنع لأنه لم يحصل من الأمير عبد القادر على تفويض يسمح له بالموافقة على مثل هذا التعديل. واصطنـع (فالي) الغضب، ورد عليه قائلاً: «إنه كان ينبغي الامتناع عن الدخول في هذه المحادثات إذا لم يكن مزوداً بالصلاحية الضرورية. ومن جهة أخرى، فاذا كان يتمتع بهذه الصلاحية، فعليه أن يوقع على ما صرح بأنه يقبله. ولما أحرج ابن عراش بتصاعد الضغط عليه، عرض على الحاكم العام أن يتجه إلى الأمير للحصول على التفويض الضروري لاتمام المفاوضات. ولكن (فالي) منعه من السفر قبل أن يضع خاتمه على المشروع. وقد رضخ (ابن عراش) ووضع ختمه على المشروع في ٤ تموز ـ يوليو ـ ١٨٣٨ موضحاً أنه اطلع على المقترحات التي يشتمل عليها واستحسنها». وعلى كل حال، فقد رفض الأمير إجراء أي تعديل على (معاهدة تافنه) ولام وزيره (ابن عراش) لأنه وقع على المقترحات.

وتكررت المحاولات بعد ذلك، واستمرت الاتصالات، التي كانت أشبه ما تكون (بحوار الطرشان) نظراً لتباعد الشقة بين الطرفين، ونظراً لتصميم فرنسا على المضي في مخططاتها التوسعية التي كان لا بد لها من ان تصطدم بالمقاومة الجزائرية. وأثناء ذلك تقدم (فالي) إلى حكومته بخطة اعتمدتها الحكومة بعد ادخال تعديلات طفيفة عليها. وتقضي هذه الخطة بالقيام بمسيرة عسكرية لاثبات حقوق (فرنسا) في الأراضي المتنازع عليها، تبدأ من سطيف وتنتهي الى الجزائر عبر مضيق البيبان (باب الحديد). وقد رأى (فالي) أن يعطي لهذه التظاهرة العسكرية أهمية خاصة. فامتنع ابن الملك (دوق دورليان) الذي وصل الى المرسى الكبير في ٢٣ أيلول-سيبتمبر ـ ١٨٣٩ للقيام بجولة تفتيشية، بأن يسير معه على رأس الجيش الذي يقوم بهذه العملية، بعدما أكد له أنها لن تؤدي الى استئناف الحرب.

٧ ـ مغامرة مضيق البيبان. ونتائجها.

وصل ابن الملك (دوق دورليان)[١١] الى قسنطينة يوم ١٢ تشرين الأول ـ اكتوبر ـ ١٨٣٩ م. ومن هناك سار في رفقة الحاكم العام (فالي) إلى (ميله) على رأس قوة تتكون من (٤) آلاف ضابط وجندي، وسارت القوة من (ميله) الى (سطيف) يوم ١٨ تشرين الأول ـ اكتوبر، حيث أرغمتها الأمطار الغزيرة على البقاء حتى يوم ٢٦ من الشهر ذاته، حينما اتجهت الى (مضيق البيبان) الذي اخترقته يوم ٢٨. وقد استغرقت عملية عبور هذا المضيق الوعر التي بدأت عند (الباب الصغير) أربع ساعات (من الزوال حتى الساعة الرابعة). ونظراً لما انطوت عليه عملية العبور من أخطار، فقد عمل المقراني الذي كان عميلاً للفرنسيين، باستئجار أدلاء ـ مرشدين ـ للقوة الفرنسية، كما دفع أموالاً طائلة لبعض القبائل التي مر الجيش بأراضيها في المنطقة لإقناعها بعدم التعرض له. ولما وصل الجيش الفرنسي إلى سوق حمزة ـ البويرة ـ اكتفى (فالي) باستطلاع هذا الحصن، دون أن يترك حامية فيه. ومما يجدر ذكره أن شيوخ بعض القبائل التي مر الجيش بأراضيها، أجروا مقابلات مع قادة الجيش الفرنسي، وطلبوا إليهم تقديم ايضاح عن سبب خرق حرمة أراضيهم، فما كان من هؤلاء إلا أن أخرجوا لهم وثائق وعليها ختم الأمير عبد القادر، تصرح للجيش الفرنسي بالمرور بأراضيه، فاقتنع رؤساء القبائل بذلك، ولم يكونوا يعرفون أن هذه الوثائق مزورة!. ومع ذلك فان قوات الخليفة (ابن سالم) قامت بمناوشة الجيش المعتدي (عند جسر بني هني) وبذلك أثبت الخليفة معارضته للعملية ريثما يتلقى تعليمات الأمير. وعلى كل حال، فان الجيش الفرنسي، وصل بسلام إلى مدينة (الجزائر) يوم ٢ تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ ١٨٣٩، حيث

---

(١١)دوق دورليان: (FERDINAND — PHILIPPE , DUC D'ORLEANS) هو أول أبناء لويس فيليب الأول الذي كان له خمسة أبناء وثلاث بنات. وقد عاش دوق دورليان في الفترة (١٨١٠ ـ ١٨٤٢ م) وتزوج من الأميرة هيلين دو ملكنبـرغ التي أنجبت له ولدين هما (كونت باريس ١٨٣٨ ـ ١٨٩٤) و(دوق شارتر ١٨٤٠ ـ ١٩١٠).

اقيمت له احتفالات ومآدب، كان (باب الواد مسرحها) واستقبل (فالي) و(ابن الملك) استقبال الغزاة الفاتحين.

كان نجاح العملية مزدوجاً، فمن الناحية السياسية، سجل فالي نقطة، ولو بالكذب والتزوير، فلم يقع لجيشه (كما وعد بذلك حكومته) حادث يذكر. بل إن بعض السكان استقبلوا ابن الملك في طريقه بروح ودية، معتقدين أن ابن الملك انما خرج للنزهة والسياحة. ومن ناحية الاستكشاف الجغرافي: نجح الفرنسيون في اختراق (ابواب الحديد) حيث فشل الرومان والاتراك الذين كانوا يدورون بهذا المضيق من الخلف، ويمرون في جنوبه.

فتحت مغامرة (مضيق البيبان) صفحة دامية جديدة في تاريخ الجزائر، فكانت في فظائعها وأهوالها اكثر رهبة وأشد قسوة مما عرفته منذ وطأت أقدام الغزاة المستعمرين الفرنسيين ثراها الطهور. إذ ما كاد يذاع انتهاك (معاهدة تافنة) بمثل ذلك الانتهاك الصارخ، والتحدي السافر، حتى أصدر الأمير عبد القادر أوامره الى خلفائه وقواده في مختلف الولايات للتأهب للحرب، ثم استدعى (مجلس الشورى) الذي ضم علماء الجزائر وزعماءها ورجال الدين فيها وتقرر بالاجماع الدفاع عن البلاد ضد قوات الاستعمار، ووقع الهجوم الأول في سهل متيجة يوم ٢٠ تشرين الثاني - نوفمبر - ١٨٣٩. وتقاطر المجاهدون من كل صوب، وأخذوا في تدمير المزارع الفرنسية، وتحطيم المنشآت، كما قضوا على فصيلة عسكرية كانت ترافق قافلة فرنسية. وفي يوم ٢١ منه، انقضوا على معسكر (وادي علاق) وقتلوا جميع من فيه (١٠٨ ضباط وجنود).

وعند انتشار الأخبار التي تتعلق بهذا الهجوم، ساد بين سكان المنطقة شعور الذعر، وأخذ الأوروبيون يتدفقون على مدينة الجزائر هروباً للنجاة بحياتهم، وكذلك ترك كبار الفرنسيين منازلهم الريفية ورحلوا عنها، ومن بين المنازل التي هجرها سكانها، منزل الماريشال (فالي) ذاته. وقد توغل

الفرسان العرب في هجومهم حتى وصلوا إلى أبواب الجزائر، حيث استولى الرعب على الفرنسيين الذين كانوا يتخوفون، خصوصاً، من احتمال قيام السكان العرب فيها بثورة.

كان (فالي) واثقاً من أن الأمير سيكتفي بتوجيه رسائل الاحتجاج، ولم يكن يدرك أن ممارساته الاستفزازية ستشعل نار الحرب، ولهذا فقد أهمل سهول متيجة (متوجة) ومنشآت المعمرين فيها وتركها مجردة من وسائل الدفاع. وعندما بلغتـه المعلومات عن ردود الفعل الأولى، أدرك خطأه الفاحش في التحدي والاستفزاز العسكري، وعندئذ كان الوقت قد فات، ولم يبق أمامه إلا أن يصدر الأوامر بالجلاء على المراكز العسكرية التي أقامها هنا وهناك، لحماية المنطقة التي تقع تحت الاحتلال. وقد تم تنفيذ هذه الأوامر خلال الفترة بين ٢٣ تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ و٤ كانون الأول ـ ديسمبر ـ ١٨٣٩ بحيث لم يترك حاميات إلا في معسكرات (الفندق) و(الأربعاء) و(قارة مصطفى) و(المعسكر ـ الواقع على مرتفعات البليدة). وحتى هذه الحاميات، واجه صعوبة في تموينها، بحيث اضطر إلى تنظيم قوات عسكرية كبيرة لمرافقة القوافل التي تقوم بهذه المهمة. فإن خلفاء الأمير (ابن علال) خليفة مليانة، و(البركاني) خليفة المدية، قد فرضا حصاراً اقتصادياً على القوات الفرنسية، كما أمرا بقطع طرق المواصلات المؤدية إلى هذه المعسكرات، بل ونجحا حتى في قطع المياه التي تمون معسكر البليدة.

وفي ولاية (وهران) قامت قوات الأمير عبد القادر بعمليات محدودة النطاق وقد خرج (مصطفى بن التهامي) خليفة معسكر، في إغارة على مستغانم في ١٣ كانون الأول ـ ديسمبر على رأس قوة، وزحف على (مسرغان) في ٢٣ كان الأول ـ ديسمبر ـ ١٨٣٩. وكذلك قام فرسان (الغرابة) باغارات على قبائل (الدوائر والزمالة ـ الموالين للفرنسيين) ودخلوا في عدة اشتباكات مع (ابن اسماعيل) وقومه. ثم قامت قوات (الخليفة ابن التهامي) في اوائل شباط ـ فبراير ـ ١٨٤٠، بتضييق الخناق على حامية (مستغانم) المكونة من (١٢٣) ضابطاً وجندياً بقيادة القبطان

(لو ليفر) في حصار دام خمسة أيام، تلقت بعده امدادات من وهران، ثم رفع العرب الحصار عنها، وقد كانت هذه العملية موضوعاً لاسطورة مثيرة للخيال في الصحف الفرنسية التي عزت للحامية فضائل من الصبر والشجاعة خارقة للعادة. وكانت المبادرة في كافة هذه المعارك الأولى بيد العرب. غير أن رد فعل الفرنسيين بدأ بعدئـذ بمخططات جديدة. وضع (فالي) مخططاته على اساس القيام بأعمال هجومية لتوسيع أفق الاحتلال العسكري. وقسم مخطط الهجوم على مرحلتين: المرحلة الأولى وفيها يتم احتلال المدن الداخلية الكبيرة وفي مقدمتها (المدية) و(مليانة) وتأمين المواصلات بينها وبين الموانىء البحرية الواقعة تحت الاحتلال (وهران) و(مستغانم). ثم تأتـي المرحلة التالية، وفيها يتم استخدام المدن الداخلية كقواعد لانطلاق هجمات متطورة يتم فيها احتـلال المواقـع والمدن المجاورة، وابعاد المقاومات العربية تدريجياً من الشواطىء والتـل ودفعها إلى الصحراء. وكان لا بد لمخطط (فالي) من الاصطدام بعقبات سياسية لا يستهان بها، إذ ان الأخبار التي أذاعتها الصحف أو نقلتها الرسائل الشخصية من الجزائر في فرنسا، عن حالة الذعر والهلع التي سادت بين الأوروبيين نتيجة لهجمات قوات المقاومة الناجحة كانت لها ردود فعل قوية في فرنسا. وإذا كانت الحكومة قد استجابت لرغبة القطاعات التي تطالب باتخاذ إجراءات عسكرية حازمة من الرأي العام. وأرسلت في شهر شباط ـ فبراير ـ ١٨٤٠ تعزيزات إلى فالي تتكون من (١٩) ألف ضابط وجندي. فكانت مضطرة أيضاً إلى أن تأخذ في الاعتبار، تهجمات المعارضة على (فالي) الذي كان يتمتع بحماية القصر الملكي وتأييده ـ وخصوصاً من الدوق دورليان، ابن الملك ـ الذي كان يرى في المعارك الجزائرية الميدان الوحيد لتحقيق ما يحلم به من البطولة والمجد، وكذلك كان مركز (فالي) قلقاً عندما استقالت حكومة (سولت) وحلت محلها وزارة تيير الثانية في ١ آذار ـ مارس ـ ١٨٤٠، إذ عمل (تيير) على نصح (فالي) بتحديد أفق عملياته، والاكتفاء باحتلال (المدية) و(مليانة) و(شرشال) مع تـأمين المواصلات بين هذه المدن وحامية (وهران) عبر (وادي الشلف). وقد

نجح (فالي) بتنفيذ هذا المخطط مع انتهاء فصل الخريف من العام ١٨٤٠. غير أن الانتصار العسكري بقي عاجزاً عن بلوغ الهدف السياسي، فزاد وضع الفرنسيين حرجاً. حتى ان الضابط (فاليوت) سكرتير (الجنرال بيجو) نقل عن بعض القادة الفرنسيين ومما شاهده اللوحة التالية: «ـ انني، مدة الشهر الأول من اقامتي في بلاد الجزائر، شاهدت سوء حال الفرنسيين، وعاينت الشدائد التي كانت تحدث يومياً، ورأيت ارتباك الحاكم العام في تدبير سياسته التي بلغ فيها الى مركز صعب، لأن أمره كاد يقضي عليه، بالرغم من وجود نجدات وذخائر ومهمات حربية في (المدية) و(مليانة) لكن من الصعب أن تصل يده الى ذلك في كل وقت لأن الجيش الذي تحت أمرته في الجزائر أصبح يعصي أوامره. والذخائر والمهمات التي أعدها لما هو بصدده نفدت، وأصبح من المتعذر احضار مثلها من فرنسا، وهو لا يريد كشف الغطاء للدولة عن أموره كلها خوفاً من توجيه العتاب اليه على سوء تصرفه، فلذلك رأيناه في حيرة دائمة وارتباك متصل، فضلاً عن سوء حالة جنده». ولقد ترتب على هذا العمل، أن جاءه أمر من الحكومة الفرنسية بباريس، بتخليه عن القيادة العامة لعدم كفاءته، وعزلته عن ممارسة أي عمل عسكري، وأخبرته بأن وزارة الحرب ستعين قريباً خلفاً له، تتوافر فيه الكفاءة العسكرية، وهو الجنرال (بيجو) الذي قلدته رتبة (ماريشال) ليقوم بما يتطلبه الموقف.

لقد أجهد (الماريشال فالي) نفسه بأن صور (الجنرال بيجو) للحكومة الفرنسية بأنه ليس من قادة الجيش الذين يصمدون للمقاومة الجزائرية التي يتولى قيادتها الأمير عبد القادر. وأن المعاهدة التي أبرمها بيجو (معاهدة تافنة) كانت بمثابة ضربة قاصمة للوجود الفرنسي في الجزائر. وظن (الماريشال فالي) أن تقاريره ستكون موضع التقدير من الحكومة الفرنسية، غير أن الهزائم التي مني بها حملت الحكومة على اعتبار هذه التقارير بمثابة دس رخيص حافزه الحسد، وأن (بيجو) أقوى بكثير من (فالي). فأقالت فالي، وعينت محله (بيجو).

٨ ـ مفاهيم (بيجو) ومخططاته.

ما ان انجز بيجو مهمته بالتوقيع على (معاهدة تافنه) حتى رجع إلى فرنسا، وبات يتطلع الى ممارسة دور أكبر، فولاية (وهران) لم تعد تتناسب مع الحجم السياسي والعسكري الجديد (للجنرال بيجو) فبات يتطلع لممارسة (دور الحاكم العام للجزائر). ويتابع التطورات عن كثب لاستثمارها في الوقت المناسب. وقد ساهم (بيجو) بعد مغادرته الجزائر في المناقشات التي جرت في مختلف المناسبات (في البرلمان الفرنسي). وكان من الطبيعي أن ينصت إليه المجلس بعناية واهتمام بعد ذلك الدور العسكري الذي اضطلع به أثناء حكمه (لولاية وهران)، وبوصفه صاحب المبادرة الناجحة لعقد (معاهدة تافنه). غير أن نظريات بيجو بشأن (الاستعمار والاحتلال) تطورت تطوراً مهماً في غضون هذه الفترة. فلم يعد الرجل يؤمن بالاحتلال المحدود النطاق الذي يشكل قاعدة (لمعاهدة تافنه). إذ ان هجمات الأمير عبد القادر في تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ ١٨٣٩ على سهول متيجة (متوجة) ونجاح العرب دونما عناء في تدمير النقاط العسكرية ووسائل الدفاع التي أحيطت بها هذه المنطقة، ومحوهم لكل أثر للاستعمار والاحتلال فيها، قد أقنع الرجل بعدم إمكان توفير الحماية ضد العرب للمعمرين الأوروبيين. ومن ثم: «**فإن الاحتلال المحدود النطاق وهم، ووهم خطير. وهذا الخطر سيظل قائماً ما دمت مقيماً في منطقتك المحدودة، ولا تقوم بهجوم على عدوك في عقر داره. بل إنك حتى لو حاولت توسيع منطقتك الصغيرة، فإن ذلك لن يجدي شيئاً. حيث ان العدو سيجد دائماً أمامه فضاء أوسع مما يحتاج إليه للعيش. والوسيلة المثلى لتوسيع نطاق المنطقة الصغيرة ـ كما دافع عنها بيجو في عدة مناسبات في مجلس النواب ـ هي زيادة عدد القوات العاملة في أفريقية بحيث يرتفع الى مائة ألف ضابط وجندي. وتوزيع هذه القوة في تشكيلات صغيرة تتكون كل منها من (٧) آلاف رجل، وتقوم بالحركة باستمرار في مختلف أنحاء البلد، بحيث تمنع الأهالي من القيام بأعمال الزرع والحرث والرعي والحصاد،**

وتكون لهذه الأرتال المتحركة قواعد تموينها على السواحل، وبذلك يدفع الجيش بالعرب الذين لا يريدون الخضوع إلى أطراف الصحراء. ومتى أضنتهم حياة الصحراء، وقرروا العودة إلى بلدانهم، طلب إليهم - في مقابل السماح لهم بذلك، تقديم ضمانات جديدة، وفي مقدمتها تسليم أسلحتهم».

ولكن ماذا يعمل هذا الجيش الاستعماري الضخم بالأراضي الشاسعة التي يطرد منها العرب؟ وبالتالي، ما هو الهدف الذي يقترحه بيجو للحرب؟...

«... لا يمكن أن يكون للحرب سوى هدف واحد: الاستعمار. وبدون الاستعمار، لن يكون للحرب نهاية ولا نتيجة، ولن تكون الحرب حينئذ سوى مجرد مقابلات رياضية تواجه فيها قوات المشاة الفرنسية الحسنة التنظيم، والجيدة الانضباط، خفة حركة الخيالة العربية، وسرعة تنقلها بسهولة».

وأين يجد الجيش العدد الكافي من المعمرين؟ يجيب - بيجو - عن ذلك بقوله:

«... خذوهم من كل مكان، ومهما يكن الثمن! خذوهم من المدن، ومن الأرياف، ومن بين جيرانكم، لأننا نحتاج إلى (١٥٠) ألف معمر! وسيقال ان الثمن سيكون غالياً، لأنه يتحتم اقطاع الأرض لهم، وامدادهم بالأسلحة والمواد الغذائية. نعم أيها السادة، يجب أن تدفعوا هذا الثمن إذا أردتم البقاء في أفريقية. فإن الاستعمار هو الذي سيحفظ الفتوحات، ويحرر جيشكم تدريجياً من مهامه. ولذلك، يجب عليكم أن تفتحوا اعتمادات بخمسة عشر أو عشرين مليون فرنك لجمع المعمرين وتأمين استيطانهم. وبعد ذلك سيتحتم عليكم تسليحهم وتنظيمهم عسكرياً. وبدون ذلك،فسيعجزون عن البقاءبين العرب - هذا إذن هدف

الحرب، ولا هدف سواه»(*)

وتصدى بعض النواب في المجلس لمناقشة نظريات (بيجو) الجديدة، وأظهروا التناقض القائم بين هذه النظريات وبين مضمون (معاهدة تافنه) التي سمحت للأمير عبد القادر بتطوير جيشه، فوقف (بيجو) مدافعاً عن نظرياته، صارخاً بلهجة إذا كان يعوزها المنطق، فهي لا ينقصها الحزم:

«إن هذا الجيش (المكون من ٤ ـ ٥ آلاف ضابط وجندي) ليس هو نقطة القوة بل نقطة الضعف في الأمير! لأن هذا الجيش هو الذي سيسمح لنا بالقضاء عليه يوماً ما. . . وأما قوته الحقيقية، فهل تعرفون ما هي؟ إنها في سرعة تنقله، وفي سعة الفضاء الذي يجوبه، وفي حرارة شمس أفريقية، وفي عدم توافر المياه، وفي حياة البدو التي يعيشها العرب. تلك هي قوة عبد القادر».

***

تحقق للجنرال (بيجو) ما يريده، وأصبح ماريشالاً، وحاكماً عاماً للجزائر، وقائداً لجيش أفريقية. وكان فرحه كبيراً بانتصاره على منافسه (الماريشال فالي) ودسائسه، وتأكد له أنه اكثر خبثاً، واكبر مكراً، وأقوى نفوذاً من منافسه. غير أنه صرح للحكومة قبل أن يمضي لبدء المرحلة

(*)من خطاب ألقاه بيجو في مجلس النواب في ١٥ كانون الثاني ـ يناير ـ ١٨٤٠ بمناسبة مناقشة ميزانية سنة ١٨٤١، وكان ذلك رداً على (بيسكا توري) سكرتير لجنة التحقيق في افريقية سابقاً. وقد وقف في البرلمان قائلاً: «أفريقية معناها الخراب في السلم والضعف في الحرب. أفريقية مصيبة وجنون» وكان قوله هذا معبراً عن الجماعة المناهضة للاستعمار والتي كانت تؤيد التعايش السلمي مع المسلمين. غير أن رئيس الوزراء الاستعماري (تيير) رد على ذلك بقوله: «أفريقية هي مهد البطولة التي تثير قصص معاركها خيال الأطفال وتسيل دموع النساء» وهيمن على أثر ذلك اتجاه لتوسع الاستعمار وتطويره، وظهر (بيجو) في صورة (رجل القدر) «الذي تتوافر له الكفاءة السياسية والعسكرية والادارية لادارة الحرب حتى تحقيق النصر النهائي على عبد القادر» فتم استدعاء الماريشال فالي يوم ٢٩ كانون الأول ـ ديسمبر ـ ١٨٤٠، ومنح بيجو رتبة الماريشال وتم تعيينه حاكماً عاماً على الجزائر، وقائداً أعلى لجيش أفريقية. (المقاومة الجزائرية ـ اسماعيل العربي ـ ص ٢٠٥ ـ ٢٠٧)

الجديدة من حياته: «بأن الوضع في الجزائر أصبح عسيراً بسبب السياسة التي اتبعها فالي وأنه في وسعه القيام بالاعباء التي كلف القيام بها على شرط أن يزود بالأسلحة والجنود بوفرة وكثرة» واستجابت الحكومة لرغبته وجهزت له ثمانين ألف جندي. وجعلت تحت تصرفه أسلحة ومهمات حربية كثيرة فضلاً على الجيش والعتاد الذي كان بالجزائر.

أخذ (بيجو) في اعداد جنوده وقادته (نفسياً) لمجابهة العرب، وإزالة المخاوف التي هيمنت عليهم بسبب الهزائم المتتالية التي نزلت بهم، وقد جاء في أحد الخطب التي ألقاها عليهم:

«أيها القادة والرؤساء الامجاد! كنت أظن أن للأمير عبد القادر جنوداً نظامية كافية، ولها خبرة بفنون الحرب وأساليبه، واقتداراً على مقاومة الجيوش الفرنسية. والآن تحقق عندي أن الأمير على خلاف ذلك، وكنت أظن العرب ذوي ضخامة وجسامة فتبين لي الآن أنهم ليسوا كذلك، غير أني لا أنكر قوة بأسهم وشدة شوكتهم وصلابتهم في الجلاد ومقاومة خصومهم وأعدائهم، لكن هذا ما داموا في أوطانهم، وما دامت أملاكهم في أيديهم التي عليها مداد معاشهم. وتأكد لي أن الرأي الذي نتوصل به إلى تفريق كلمتهم، واخضاعهم للطاعة، هو في أن يتصدى جنودنا أولاً للاستيلاء على ممتلكاتهم وحقولهم التي فيها انتجاع ماشيتهم، ومورد رزقهم، فان حصل هذا فلا شك في الفوز والنجاح. ثم نضع الحاميات الكافية والأسلحة الضرورية في الأماكن الصعبة التي نمر عليها، وذلك حتى نتمكن من مطاردة الفارين منهم، والمتوغلين الى داخل البلاد. ونضع جنوداً وافرة في الحدود لمنعهم من الدخول إلى الممالك المجاورة لبلاد الجزائر. فاذا ضاق عليهم المجال، واشتدت عليهم الفتن والأهوال من كل جهة، فانهم يخضعون لطاعتنا. . . ولعل مما يسهل علينا بلوغ هذا الهدف، هو أن أكثر رؤساء جندنا وقادتهم تعلموا اللغة العربية، وصاروا ماهرين فيها، عارفين بعوائد العرب وأحوالهم. وفي رأيي أن نعين قسماً

من الجند للمحافظة على الأماكن المهمة في سائر الجهات، وقسماً آخر يقيم في التخوم لمنع الوارد الى البلاد والصادر منها، كما يمنع الفارين من أهلها إلى الخارج عنها، ونعد باقي الجند للهجوم والحرب. واعلموا أن الحرب النظامية لا تجدينا نفعاً، لأن الخصم لا يعرف ذلك، وإنما نقابل العرب بما يقابلوننا به. والمقصود والأهم هو أن يهتم جنودنا باستخدام كل ما من شأنه تفتيت قوة الأمير، وزعزعة أركان دولته».

***

على هذا، وصل (بيجو) الى الجزائر في ٢٣ شباط ـ فبراير ـ ١٨٤١، حيث وجد تحت تصرفه جيشاً يبلغ عدده الآن (٧٨) ألف ضابط وجندي، حسن التدريب والتجهيز، وقد اكتسب خبرة ثمينة بمعرفة الأرض وطرق القتال مع العرب. وبعد جولة تفتيشية قصيرة، شرع (بيجو) في تطبيق استراتيجيته، فأمر بتدمير عدد من المراكز العسكرية المحصنة في سهل متيجة. ثم أبحر في ٧ آذار ـ مارس ـ إلى ولاية قسنطينة، حيث أمر بتدمير عدد آخر من النقاط العسكرية التي لم يكن يرى فائدة فيها. وأصدر عدداً من الأوامر، من بينها أمر يقضي بعدم قبول خضوع القبائل إلا بواسطة زعمائها الذين يعتبر كل واحد منهم مسؤولاً عن تصرفات أبناء قبيلته، ثم أمر كذلك بأن تعلق على كل عربي يعلن ولاءه لفرنسا شارة معدنية مسدسة الأضلاع مكتوب عليها: «عربي خاضع!». ولقد نفذ قادة بيجو ـ المرؤوسون ـ هذه السياسة، وأصبحوا يعملون بجهد مستمر لعرقلة تحركات الأمير عبد القادر، وان يحولوا بينه وبين القبائل التي كانت تمده بالمال والرجال، وبسبب هذا الدس الرخيص، انفصل عن الأمير عدد كبير من مؤيديه، وأصبحوا يتعاملون مع الفرنسيين، بل إن بعضهم ذهب بهم الضلال والخداع، إلى أن أصبحوا جواسيس يمدون العدو بالمعلومات عن قوة الأمير وتحركاته، مما أدى إلى إعلاء مركز الفرنسيين وشجعهم على أن يفكروا في الهجوم على البلاد التي كانت خاضعة لسلطان الأمير ونفوذه.

لقد تميزت خطة (بيجو) الجديدة بالتكامل والشمول، وبربط الجهد السياسي بالجهد العسكري وبإعادة التنظيم الاجتماعي، وكان لا بد لهذه الخطة ـ حتى تنجح ـ من جهد مستمر، ووقت طويل وكان (بيجو) على استعداد لذلك.

٩ ـ استئناف الحرب.

ما ان رجع (بيجو) الى الجزائر، حتى أصدر أمره بتعيين الجنرال (باراجي دوهيلير)[١٢] قائداً على ولاية الجزائر، وكلفه بالقيام بعمليات ضد المدن التي كانت تابعة للأمير عبد القادر، ثم أبحر في ١٤ ـ آذار ـ مارس ١٨٤١ حيث كان ينتظره قائد وهران (لامورسيير) الذي جاء على رأس قواته لاستقبال الحاكم العام الجديد. وبدأت الحملة الفرنسية الجديدة بتسيير قافلتين متتاليتين من الجزائر لتموين (المدية) و(مليانة) بين ٣٠ آذار ـ مارس و٦ نيسان ـ ابريل. اشترك فيها (الدوق دومال [١٣] ابن الملك لويس فيليب) وقد كلفت هذه المسيرة الفرنسيين خسائر فادحة. ولكن العمليات العسكرية الحقيقية في الحملة ستبدأ في ١٨ أيار ـ مايو ـ بتحرك قوات فرنسية كبيرة تحت أوامر (بيجو) تتكون من فيلقين، أحدهما بقيادة (لامورسيير)[١٤] والآخر بقيادة (الدوق دونمور[١٥] الابن الثاني

---

(١٢) باراجي دوهيلير: (BARAGUAY-D'HILLIERS-ACHLLE) ماريشال فرنسا، من مواليد باريس (١٧٩٥ ـ ١٨٧٨ م) اشترك في حرب الجزائر، وبرز اسمه في حرب القرم (١٨٥٤) حيث انتزع من الروس حصن (بومارساند: BOMARSUND) وانتصر على النمساويين سنة ١٨٥٩.

(١٣)الدوق دومال: (HENRI DUC D'AUMALE) الابن الرابع للملك لويس فيليب الأول، وهو جنرال، ومؤرخ، من مواليد باريس (١٨٢٢ ـ ١٨٩٧ م) برز اسمه اثناء حملة الجزائر حيث استولى على (زمالة الأمير عبد القادر ـ سنة ١٨٤٣) وترك مؤلفاً تاريخياً هو (تاريخ امراء كونديه) وأوصى للمعهد التاريخي (بقصر شانتيي) بمجموعاته.

(١٤)لامورسيير: (LOUIS DE LAMORICIERE) جنرال فرنسي، ورجل دولة، من مواليد نانت (NANTES) (١٨٠٦ ـ ١٨٦٥ م) برز اسمه أثناء حرب الجزائر، وقد اعتقل وصدر الأمر بابعاده، نفيه، عندما قام نابليون الثالث بانقلابه المعروف باسم (انقلاب ٢ ـ كانون الأول ـ ديسمبر DEUX DECEMBRE) ثم أصبح قائداً للقوات الفرنسية في الامارة البابوية.

(١٥)الدوق دونمور (LOUIS - CHARLES - PHILIPPE ,DUC DE NEMOURS) الابن الثاني

للملك) سارت على الاتجاه الجنوبي (نحو تكدمت) عاصمة الأمير الثانية. ولما وصل إليها في ٢٥ أيار ـ مايو ـ وجد المدينة خرائب وأنقاضاً لا تزال تشتعل فيها النيران، حيث كان الأمير قد أمر سكانها بالجلاء عنها، ونقل ما خف من الذخيرة الحربية والمؤن التي كانت فيها، وباشعال النار في منازلها ومصانعها. وقد رأى (بيجو) المضي في هذه العملية، فأمر سلاح المهندسين بتفجير الألغام لتدمير تحصينات المدينة التي من بينها سورها الذي يبلغ سمكه أكثر من متر، والذي كان لا يزال قائمًا. ومن هناك، اتجه جيش بيجو، وفي أعقابه قوات المقاومة تطارده وتناوشه على طول الطريق، إلى (معسكر) التي وجدها في حالة جيدة. وهناك اختار عدداً من المنازل الكبيرة التي اتخذ منها ثكنات عسكرية ومستشفى ومستودعات، ثم رتب فيها وترك لها من المؤن ما يكفيها لمدة خمسين يوماً، وانكفأ راجعاً الى **(مستغانم)** التي وصل إليها في ٣ حزيران ـ يونيو ـ وأثناء ذلك استطاعت قوات الجنرال (باراجي دوهيلي) الاستيلاء على تلك الحصون الدفاعية الأخرى التي شيدها الأمير بكثير من الجهد والتضحيات واحداً بعد واحد. حيث سقط (حصن البغار) في قبضة الفرنسيين يوم ٢٣ ـ أيار ـ مايو ـ و(حصن تازا) في ٢٥ من الشهر ذاته. وقد تم تدمير الحصنين مثلهما مثل (حصن تكدمت) وكذلك دمرت جميع المنشآت العسكرية والمدنية التي كانت تحتوي عليها.

عبثاً ما كان ينتظر (بيجو) الاشتباك في معركة تقليدية (كلاسيكية) مع العرب. ولذلك فهو لم يجد وسيلة أفضل لشغل وقت جنوده الذين ينتظر كل منهم الفرصة ليقول لجدته انه (قاتل عبد القادر) من أن يقودهم ويوجههم، كما يوجه الفلاح العجوز أبناءه، في عمليه للحصاد في سهول (أغريس) التي احتلوها، بعدما دمروا (زاوية القطنة ـ في وادي الحمام

للملك لويس فيليب الأول، وهو من مواليد باريس (١٨١٤ ـ ١٨٩٦ م) برز اسمه في حرب الجزائر، وأثناء الاستيلاء على قسنطينة.

مسقط رأس الأمير) وبعدما خربوا (حصن سعيدة) الذي كان الأمير قد أشعل النيران فيه. وصحيح أن الجنود الفرنسيين قد جنوا نحواً من (٢٥٠٠) قنطار من الحبوب، وكميات مماثلة من التبن في هذه العملية. ولكن الحكومة الفرنسية التي كانت تنتظر من (بيجو) أن يعلن لها أنه سيرسل (الأمير وأتباعه) في أول باخرة قادمة إلى فرنسا، لم تكن بدون شك لترتاح إلى هذه النتيجة لو أعلنت إليها. وتبعاً لذلك، فعلى الرغم من النجاح الظاهري الذي أسفرت عنه حملة الربيع في تخريب معامل الأمير وحصونه الدفاعية، فقد ظلت حكومة باريس قلقة حيث كانت ترى أن قوة الأمير قد (تزعزعت) ولكنها لم (تدمر). إذ انه على الرغم من احتلال (معسكر) وعلى الرغم أيضاً من الوسائل التي التجأ إليها (لاموريسيير) لجمع القبائل حول ـ الباي، صنيعة الفرنسيين ـ في (معسكر)، فقد باءت محاولات الحاكم العام السياسية (بفشل تام). كما أن القبائل القليلة التي خضعت للفرنسيين، فانها لم تعلن خضوعها إلا مكرهة، وهي مستعدة على كل حال، للخروج على الطاعة في أول فرصة تجدها. ومهما يكن من شيء، فان (بيجو) عاد إلى (مستغانم) في ٥ تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ ١٨٤١، واتجه منها الى (الجزائر) بعدما عين (لاموريسيير) قائداً على (معسكر) و(بيدو) قائداً على (مستغانم) و(تامبور) قائداً على (وهران). وكذلك أصبحت المدن الثلاث قواعد لعمليات عسكرية لاخضاع المثلث الذي يمتد بينها في أواخر السنة. وبذلك اتسعت مساحة الأرض الخاضعة للاحتلال في سنة (١٨٤١) بصورة محسوسة، وأصبح خط المدن الداخلية يشمل الآن (قسنطينة) و(المدية) و(مليانة) و(معسكر). وذلك بالاضافة إلى المدن الصغيرة التي تقع في هذه المنطقة ومدن الشاطىء، ومع ذلك فان مدينة (تنس) التي يخدم ميناؤها منطقة (درعة) الجبلية الوعرة، بقيت بعيدة عن سيطرة الفرنسيين.

***

تابع (بيجو) خطته العسكرية مع بداية السنة التالية (١٨٤٢ م) فسار

على رأس جيش كبير في يوم ٢٤ كانون الثاني ـ يناير ـ الى (تلمسان) التي كانت تحت قيادة (الخليفة البوحميدي). ولما وصلها كان سكانها قد جلوا عنها، حاملين معهم ما خف حمله من الأثاث والممتلكات. وقام (بيجو) بمجموعة من التحركات العسكرية في ضواحي المدينة، استدعى بعدها الجنرال (بيدو) من مستغانم، وعينه قائداً لقوات الاحتلال. ثم اتجه هو إلى (حصن سيدو) الواقع في جنوب المدينة، وأمر بهدمه يوم ٩ شباط ـ فبراير.

علم (بيدو)[١٦] بوجود الأمير عبد القادر في (جبل طرارة) فقرر الزحف على هذه المنطقة بقوة تتكون من (٢٥٠٠) ضابط وجندي مضافاً إليها قوة من فرسان (الدوائر والزمالة ـ بقيادة مصطفى بن اسماعيل) وفرسان (بني عامر) ووصل بهذه القوة إلى (ندرومة) في ٨ آذار ـ مارس ـ غير أن الأمير كان قد غادر هذه المنطقة واجتاز الحدود إلى المغرب الأقصى. وفي غضون شهري آذار ونيسان (مارس وأبريل) وقعت عدة معارك ثانوية بين قوات المقاومة وقوات (بيدو) وخصوصاً على ضفاف (تافنه) و(سكاك). ولما عرف (لامورسيير) أن قوات الأمير كانت منهمكة في قتال (بيدو) اغتنم هذه الفرصة لتوسيع دائرة نفوذه، وقاد حملة نحو الصحراء. وقد وجد الأمير عبد القادر في هذه الظروف بدوره، فرصة ثمينة ليظهر من جديد على مسرح العمليات في مسقط رأسه، لاستعادة سلطانه على تلك القبائل التي كانت أول من بايعه وأعلن الطاعة له. وهناك ضرب بسيف من حديد ضد المتعاونين الذين ثبتت خيانتهم، وضرب مثلاً للقبائل المتخاذلة التي اعتقدت أن نجمه قد أفل لغير رجعة، ودخلت في علاقات ولاء وتحالف مع العدو. ولما علم (لامورسيير) بخبر ظهور الأمير في المنطقة التي تكبد كثيراً من المشقة لإخضاعها، سار بالعودة إلى (معسكر) حيث

---

(١٦) بيدو: (BEDEAU,MARIE ALPHONSE) جنرال فرنسي، من مواليد (فرتو-في اللوار السفلي) (١٨٠٤ـ ١٨٦٣) برز اسمه في حرب الجزائر، واعتقل في انقلاب نابليون الثالث.

وجد أن الولي والحليف بالأمس قد أصبح الآن عدواً، وأن عليه أن يبدأ كل شيء من الأول. ولكن (لامورسيير) أدرك أن مشكلته الأساسية هي مع الأمير الذي أصبح الآن خفيفاً يضرب حيث يشاء وفي الوقت الذي يختاره. وفي المكان الذي لا يتوقعه فيه العدو. وبينما كانت قوات (لامورسيير) تبحث عنه في سهول (أغريس) كان الأمير يجول ويصول في (تكدمت). وعلى هذه الأخبار سار (لامورسيير) في أعقابه إلى أنقاض عاصمة الجنوب. وقد وصل إليها في الوقت الملائم، ليعرف أن الأمير قد انقض على قوات زميله (الجنرال شانغارنييه)[١٧] غير بعيد من مليانه! وكان هذا الجنرال قد رأى في انشغال الأمير في الجنوب والجنوب الغربي، فرصة للقيام بعمليات هدفها إخضاع قبائل المنطقة التي ظلت على ولائها للأمير، وبينما كان منهمكاً في هذه العمليات أصبح ذات يوم فإذا به مطوقاً - محاطاً - من جميع الجهات بفرسان العرب والبربر، وبقوات الجيش النظامي التي كان يقودها الأمير نفسه. وفي أقل من لمح البصر، انقض العرب على الجيش الفرنسي الذي أذهلته المباغتة، فكانت معركة (وادي فضه) بتاريخ ٢٠ أيلول - سبتمبر - ١٨٤٢، التي دامت يومين كاملين، واستعملت فيها جميع الأسلحة، من أمجد المعارك التي خاضتها المقاومة الجزائرية. وبعد هذه المعركة التي تكبد الفرنسيون فيها خسائر كبيرة في الأرواح، بيومين فقط، ظهر الأمير عبد القادر في (سهول متيجة) حيث نشرت قواته الخراب والدمار، وحملت الحرب إلى أبواب الجزائر ذاتها، حيث كان (الماريشال بيجو) لا يتوقع ظهوره، ويظن نفسه بعيداً عن مسرح الحرب.

كان الأمير عبد القادر قد اتخذ مقر قيادته عند قبيلة (بني أوراغ) في جبال الورسنيس. وكان يراقب من معقله المنيع هذا كل

---

(١٧) شانغارنييه: (CHANGARNIER—NICOLAS) جنرال فرنسي ورجل دولة، من مواليد اوتون (١٧٩٣-١٨٧٧م) أصبح حاكماً للجزائر، واعتقل ونفي عند حدوث انقلاب نابليون الثالث (سنة ١٨٥١) والمعروف بانقلاب ٢ كانون (DEUX — DECEMBRRE) وقد عاد إلى فرنسا سنة (١٨٥٩م).

تحركات العدو على جميع الاتجاهات، ويتحين الفرص المناسبة للانقضاض عليها. وبعد العملية السابقة بأسبوعين (٨ تشرين الأول ـ اكتوبر ـ) وبينما كان (لامورسيير) يبحث عن المطامر التي ملأها الأمير بالحبوب لتموين جيشه (في منطقة تاجوين) ليفرغها، انقض عليه الأمير فجأة، وأعمل السيف في جيشه الذي يتكون من (قناصة أفريقية) و(فرسان الدوائر والزمالة) ثم انسحبت قوات المقاومة في الوقت الملائم، وتبخرت من جديد في الفضاء. وبينما كان الأمير يقود حرباً من النوع الذي يطلق عليه اليوم اسم (الحرب الثورية) أو (حرب العصابات) على امتداد المسرح الواسع في ولاية (وهران) وتيتري) وما بين الصحارى والتل، كان الفرنسيون يدعمون وجودهم، ويرسخون نفوذهم في المدن المحتلة حتى تصبح قواعد مأمونة لنشاطاتهم السياسية وفعالياتهم العسكرية. وقد أمكن لهم العثور على عدد من الشخصيات الانتهازية التي وجد فيها الاستعمار حلفاء وأعواناً لهم فائدتهم في فرض الهيمنة الفرنسية على القبائل. وكان من أبرز هذه الشخصيات، في الصحراء الشرقية، (ابن جانه) الذي سبق أن قدم عربوناً لولائه لفرنسا بقطع (٥٠٠) أذن بشرية، قطعها بسيفه الذي أهداه مع هذه القطع للسلطات التي جاءت برسالة التمدين إلى بلده؟... وكذلك (الآغا ابن محي الدين) الذي كان مساعداً للخليفة (ابن سالم) في ولاية (سوق حمزة) بالاضافة الى (مصطفى بن اسماعيل) و(التجيني) وسواهم من ضعاف النفوس.

* . * . * .

بقي نجاح مخططات (بيجو) محدوداً حتى الآن، غير أن قدوم العام الجديد (١٨٤٣) حمل معه بواكير تشير إلى توافر فرص أفضل لتطوير تلك المخططات، ولتحقيق نجاح أكبر.

كان (بيجو) مع بداية عام (١٨٤٣) لا يزال بعيداً عن تحقيق هدفه الأساسي وهو القضاء على المقاومة الجزائرية، وقائدها الأمير عبد القادر، وإذا أمكن للجيش الفرنسي توسيع حدود المنطقة المحتلة بأكثر مما كان

يحلم به قادته، حتى باتت هذه المنطقة المحتلة تشمل الآن المدن الداخلية وجزءاً مهمًا من التل، فإن السلطات الفرنسية التي تواجه مقاومة فعالة في الجبال وفي أطراف الصحراء، عجزت أيضاً عن توفير الشعور بالطمأنينة والهدوء الذي تنشده لمتابعة مخططها في توطين المعمرين، بل وعجزت حتى عن تأمين المواصلات بين المدن والمناطق المحتلة، ناهيك بحماية القبائل التي تخضعها. فإن ظهور الأمير (عبد القادر) في منطقة من المناطق المحتلة، كان بمثابة (كلمة السر) والإشارة المرتقبة لاندلاع الثورة، مما يضطر الجيش الفرنسي إلى بدء ما كان قد أتمه من جديد. وأمام هذا الموقف، وحتى يتمكن (بيجو) من بلوغ هدفه السياسي والعسكري، فقد وضع خطة استوحاها يقيناً من النهج الذي كان يسير عليه (نابليون) أثناء حملاته العسكرية في مختلف البلدان الأوروبية. وتقضي بإنشاء مراكز دائمة للعمليات العسكرية والمراقبة، وتقوم بدور مماثل للدور الذي قامت به مدينة معسكر، أي، قواعد للتموين ولانطلاق العمليات الحربية، في الوقت الذي تكون فيه خلايا إدارية تجريبية لتطبيق الحكم المباشر.

لقد بدت الحاجة ملحة، بصورة خاصة، لربط الصلة بين الحاميات الفرنسية في خط المدن الداخلية، في (مستغانم) و(معسكر) و(مليانة) و(المدية) ولهذه الغاية قام (لامورسيير) في أواخر نيسان- ابريل- ١٨٤٣ بإنشاء (**معسكر الأصنام**) الذي ستطور ويتحول إلى (**مدينة الأصنام**)- الحالية. ثم قام غيره بإعادة بناء المدن والحصون الجنوبية التي ضربها الجيش من قبل وهي: «(تازا) و(البوغار) و(تكدمت) و(سعيدة) و(سيدو). وكذلك قام (لامورسيير) بوضع أسس (**مدينة تيارت**) الحالية على مقربة من (**تيهرت**) الرسمية القديمة. وقام (شانغارنيـي) ببناء (**ثنية الحد**) التي تقع على مسافة (٦٧) كيلومتراً إلى الجنوب من (مليانة). هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية **فقد فكر (بيجو) بعزل الحافز الديني وإبطال فريضة الجهاد حتى يتم له إخضاع البلد، وتدمير الروح المعنوية للشعب، وتحطيم إرادته القتالية، والقضاء على روح المقاومة قضاء نهائياً. وللوصول الى**

هذه الغاية، وضع الخطوط الرئيسية لسياسة للاحتلال تقوم على الدعاية الملحة بسلامة نوايا الفرنسيين، وجمع المعلومات بمختلف الوسائل، ونشر اطمئنان مصطنع في النفوس، بتجريد قوات ضخمة، ووضعها على قدم الاستعداد للقمع وللدفاع عن المناطق الخاضعة للاحتلال. ووجد (بيجو) عوناً ذا قيمة لا تنكر لتنفيذ هذه الخطة في المغامر الفرنسي (ليون روش) الذي أشهر اسلامه، وتزوج بمسلمة وعمل كاتباً ومستشاراً للأمير عبد القادر قبل أن يرتد ويعود الى أصله. ولعل مما يجدر ذكره هو أن هذا الشخص (ليون روش) كان قد قام بدور هام في الاتصالات التي جرت بين الأمير عبد القادر والتجيني أثناء حصار (حصن عين ماضي) حيث قام (ليون روش) بعد استسلام التجيني للأمير، بتفجير الألغام لنسف أسوار هذا الحصن (القلعة). وظهر ـ فيما بعد ـ أن (ليون روش) قد أسهم في مساعدة التجيني ـ إذ تبين لكل واحد منهما أنه يلتقي في الهدف مع صاحبه (التقاء التجيني الضال مع روش المرتد في خدمة الاستعمار). **وقد افتتح (ليون روش) الفصل الأول في سياسة (بيجو) بفضل توجيه (التجيني) وتعليماته، فسار إلى (القيروان) في شهر آب ـ أغسطس ـ ١٨٤٢م. ونزل في (زاوية التجيني). وقام مقدم الزاوية بتنظيم الاتصالات بينه وبين الأوساط التي تنتسب الى الدين والعلم، فطلب اليها اصدار (فتوى دينية) ذات طابع عام في الظاهر ـ ولكنها تنطبق على حالة المسلمين الجزائريين ـ فتعفيهم من (فريضة الجهاد). وقد حصل بالفعل على (فتوى) تصرح بأنه متى احتل الكفار أرض شعب مسلم وقام بمحاربتهم طالما كان يأمل في امكان طردهم. . . ومتى تأكد من أن استمرار المقاومة لا ينجم عنه الا الخراب والموت. فانه يمكن لهذا الشعب أن يعيش تحت سيطرة المحتل. بشرط أن يترك له الحرية في ممارسة طقوس دينه (عباداته) الخ. . . .**

وكأنما أدركت سلطات الاحتلال ما تنطوي عليه هذه العملية من السخف الذي لا يمكن أن يفوت حتى على السذج الذين وضعت الفتوى

لخداعهم والتغرير بهم، وتخوفت من تشككهم في قيمتها وفي عدم سريان مفعولها، فرأت أن تعزز مضمونها، وبعثت بالمرتد (ليون روش) ذاته إلى القاهرة ثم إلى الطائف حيث كان من المفروض أن يصدق عليها علماء من طراز (التجيني). والرواية الفرنسية التي تورد هذه القصة، وتعطيها أهمية خاصة، تتجنب ذكر المبالغ التي دفعها (بيجو) مقابل إطلاق ألسنة هذه الضمائر الإسلامية (الحية) التي صمتت عن عملية الغزو والاحتلال التي قامت بها فرنسا طوال اثني عشر عاماً. على أن بعض الباحثين المحدثين، أثبتوا أن (ليون روش) لم يسافر أبداً إلى البلاد المقدسة، وإنما هو بقي في (تونس) حيث كتم أخبار تنقلاته عن (بيجو) حتى عاد إليه بالوثيقة المزعومة. والمهم أن (ليون روش) عاد بوثيقة ما إلى الجزائر، بعد أسفار زعم أنها كانت محفوفة بالأخطار والمهالك- في السنة ذاتها-. وهنا وضع (التجيني) تحت سلطات الاحتلال أعوانه ورجال زواياه الذين كلفهم بمهمة توزيع الفتوى بين كبريات القبائل، حيث طلب منهم أيضاً القيام بعمليات التجسس وجمع المعلومات عن رجال المقاومة، وإعلان نية فرنسا التي لن تتخلى في المستقبل عن الخاضعين لها، بموجب معاهدة جديدة- على غرار معاهدة ديمشال ومعاهدة تافنا، لأنها لا تنوي عقد أية معاهدة بعد الآن مع الأمير عبد القادر. وفي هذه الأثناء، كتب (ليون روش) رسالة إلى الأمير بتعليمات من (بيجو) يكلفه بها أن يبلغ الأمير: «**ان ملك فرنسا قد خول لي السلطة بأن أمنحه الأمان في اليوم الذي يلقي فيه السلاح: الأمان له ولعائلته ولجميع إخوانه الذين يريدون أن يحذوا حذوه. وستقوم سفننا بنقلهم إلى أحد موانىء سلطان تركيا حيث ستقدم الحكومة الفرنسية إلى الأمير السابق كل سنة مبلغاً من المال يكفي ليضمن له مستوى من المعيشة يليق بمقامه». وكذلك قيل له ان فرنسا قد قررت، على كل حال، طرده من الجزائر، وانها لن تعقد معه معاهدة بأي شكل من الأشكال، ثم أهدوا إليه نص الفتوى المذكورة.**

لم يرد الأمير على هذا المسعى، وتابع أسلوبه في تصعيد الصراع.

وحاول (بيجو) قمع الثورة غير أنه عجز عن ذلك. كما حاول (الدوق دوما) قيادة قوات (المدية) للعمل ضد خليفة الأمير في أعالي (الشلف) وهو (ابن علال) غير أن الفشل كان حليفه. وهنا تركز جهد (بيجو) وقادته على ضرب عاصمة الأمير المتنقلة (الزمالة)(*) التي أصبحت الهدف الأول للجهد الحربي الفرنسي. ومن أجل ذلك، فقد بدأت عملية جمع المعلومات الدقيقة عن (الزمالة) والاستعانة بالخونة العملاء من أمثال (عمر بن فرات- آغا بني عياد) المعروفين بسطوهم ونشاطهم في نهب القوافل، و(مصطفى ابن اسماعيل) الذي باع قومه ونفسه للاستعماريين. وقد عمل الخائن (عمر بن فراث) على تقديم المعلومات عن مكان (الزمالة) فأسرع (الدوق دومال) بتجهيز حملة من (١٣٠٠) جندي مشاة و(٦٠٠) فارس، ومدفعين، وغادر (البوغار) يوم ١٠- أيار- مايو- ١٨٤٣ فوصل إلى منطقة (تاجوين) يوم ١٦ منه. وفي الساعة الحادية عشرة، لمح (الدوق دومال) الخائن (عمر بن فراث) وهو يسرع إليه ليبلغه أنه شاهد جمعاً هائلاً من الرجال والنساء والأطفال منهمكين في ضرب الخيام. وأصدر (دومال) أوامره الفورية بالهجوم. وتحركت (السبايس) ببرانسها الحمراء- المشابهة للباس حرس الأمير عبد القادر: «ورأى سكان الزمالة جند- السبايس- يقتربون منهم، فظنوا أنهم من فرسان الأمير- ولذلك استقبلتهم النساء

(*) الزمالة: هي عاصمة الأمير المتحركة بعد استيلاء عرنسيين على (معسكر) واحتلالها، وتخريب (تكدمت) عاصمته الجنوبية. وكانت (الزمالة) تشتمل على جميع المنشآت والمؤسسات العامة التي تحتوي عليها عاصمته، بما في ذلك، المدارس والمساجد ومصانع الأسلحة وورش التصليح ومصانع السروج والمدابغ والمتاجر، ودكاكين الخياطين والحدادين. وتعقد فيها أسواق للتبادل التجاري يقصدها السكان المقيمين عند أطراف الصحراء. كما كانت تأوي الدواوين وتحتوي على خزينة بيت المال وخزائن الولايات وممتلكات الخلفاء ورجال الدولة الشخصية. وقد كان عدد سكان الزمالة حينما استولى عليها الدوق دومال يتراوح بين (٦٠ و٧٠) ألف نسمة، تنتشر خيامهم في المنطقة الممتدة ما بين (تاجوين) و(البيضاء) في أعالي الشلف. وكان لهذا المخيم الضخم قوة من الشرطة لحمايته والمحافظة على الأمن فيه وكان (قدور بن عبد الباقي- خليفة الصحراء) هو الذي يمارس مهام حاكم الزمالة -بالنيابة- في غياب الأمير. (المقاومة الجزائرية- اسماعيل العربي- ص ٢٣٥- ٢٣٦)

بالزغاريد والرجال بالتصفيق والهتاف. ولكن شعور الحبور لم يلبث أن تحول إلى فزع ورعب. إذ أخذ جند السبايس بإطلاق النار، واستخدام السيوف لقتل النساء والشيوخ والأطفال. وتعالت أصوات الفجيعة: الرومي! الرومي!..» وحاول حرس الزمالة التدخل، غير أن الفرنسيين تمكنوا بسرعة من قتل أكثر من (٣٠٠) من العرب وأسر (٣) آلاف. ونجا من استطاع النجاة بنفسه. وانصرف الفرنسيون لجمع الغنائم التي كان من بينها آلاف رؤوس الحيوانات، ومكتبة الأمير التي ضمت خمسة آلاف مخطوطة نادرة، وخزائن بيت المال التي كانت تحتوي عدة ملايين من الفرنكات، وصناديق الولايات، وودائع الخلفاء والأولاد والقادة التي وضعوها في الزمالة. علاوة على المجوهرات وقطع النقود النادرة من الذهب والفضة وحلي السيدات. وكذلك خرج الفرنسيون من المعركة وأكياس زادهم مليئة بالثياب الفاخرة والذهب واللؤلؤ والأحجار الكريمة. فقد كان كل جندي يمارس عملية النهب بحرية تامة، وعلى مرأى ومسمع (ابن الملك) وضباطه. الذين ستثقل صدورهم الأوسمة والأوشحة مكافأة لهم على أعمال البطولة في ميدان الشرف!... وعاد (دومال) وحملته إلى (معسكر) يوم ١٨ـ أيار ـ مايو ـ دون أن تتعرض أثقاله من الأسلاب والغنائم لهجمات العرب.

استمر الصراع المرير بين المقاومة والفرنسيين. وكان من أبرز المعارك معركة ٢٣ أيار ـ مايو في (أراضي فلينة) وهي التي انتهت بقتل رأس الفتنة (مصطفى بن اسماعيل) وانتصار المقاومة. والإغارة على معسكر الأمير عبد القادر بقيادة (الكولونيل جيري) في ١٢ حزيران ـ يونيو وسقط فيها من رجال المقاومة (٢٥٠) شهيداً ووقع في قبضة الفرنسيين (١٤٠) أسيراً. ووجد الأمير أن الدائرة بدأت تضيق من حوله، فتوجه مع (٣٠٠) من فرسانه إلى أقصى المغرب ـ على الحدود الجزائرية المغربية. في حين استمر خليفته (ابن علال) في قيادة المقاومة. فجرد الماريشال (بيجو) حملة قوية في ٦ تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٨٤٣ وبعد خمسة أيام دارت معركة طاحنة في

(وادي الملاح) انتهت باستشهاد المجاهد (ابن علال) الذي طالما أتعب القوات الاستعمارية وكبدها الخسائر الفادحة، وباستشهاد خليفة مليانة (ابن علال) الذي كان يلقبه الفرنسيون بلقب (البركاني) خسر الأمير عبد القادر أقوى رجاله وأكثرهم كفاءة وأشدهم إخلاصاً.

كانت التطورات الأخيرة تشكل تحولات حاسمة في مسيرة الصراع، وحققت مخططات (بيجو) نجاحات كبيرة، إذ أمكن له خلال عمليات سنة ١٨٤٣ أن يسيطر على المدن والطرق والتل والصحراء. فيما كانت الأرتال المتحركة مستمرة في مطاردتها لفلول المقاومة التي باتت محرومة من الموارد، محرومة من الأنصار، ممزقة ومشردة، فلا غرابة أن يهلل الفرنسيون ويصفقوا للنصر والقضاء نهائياً على المقاومة الجزائرية. وقد اغتنم الماريشال (بيجو) مناسبة المأدبة التي أقامها في الجزائر تكريماً لابن الملك (الدوق دومال) في ٢٥ تشرين الثاني- نوفمبر ١٨٤٣ ليلقي خطاباً، يعلن فيه انتصاراته. وقد جاء في الخطاب قوله:

«... كان باستطاعتي أن أعلن عقب حملة الربيع أننا قد سيطرنا على الجزائر وأخضعناها، ولكنني فضلت أن أقول ما دون الحقيقة. وأما الآن، وبعد معركة تشرين الثاني- نوفمبر- الجاري، وهي المعركة عظيمة الشأن حيث قضينا فيها على بقية مشاة الأمير، فاني أصرخ بكل قوة، بأن الحرب الجدية في الجزائر قد انتهت. وربما أمكن للأمير عبد القادر القيام ببعض الإغارات على القبائل الخاضعة لنا على رأس جماعات الفرسان التي لا تزال معه، ولكنه لن يستطيع محاولة القيام بأي عمل مهم، كما أنه لن يستطيع إعادة تشكيل جيشه النظامي لأن القبائل لا تدفع له الضرائب ولا تمده بالرجال...».

كان كل شيء يؤكد أن (بيجو) بات مقتنعاً برأيه في الموقف، بل أسوأ من ذلك، على مطابقة تحليله للواقع، في أواخر سنة ١٨٤٣، حيث أخذ الهدوء النسبي يهيمن على كل مكان، وحيث كانت الإدارة الفرنسية،

بأعوانها من العرب، وبمساعدة القبائل، تعمل بطريقة رتيبة وكأنها نصبت هنا منذ قرون. ومع ذلك، فإن (بيجو) كان متسرعاً في استنتاجه. ومرة أخرى، قام الفرنسيون، كما يقول مثلهم: «ببيع جلد الدب قبل صيده». ذلك أن تعميم نظام الضرائب الفادحة، وفرض الغرامات، والعمل المستمر لتوطين الأوروبيين في أجود الأراضي وأكثرها خصباً، والعمل الدؤوب للقضاء على المقاومة الجزائرية هي السمات الرئيسية للسياسة التي انتهجتها الادارة الاستعمارية في هذه المرحلة، بناء على تعليمات الماريشال (بيجو) وتوجيهاته. وكان لا بد لهذه السياسة من أن تستثير الجزائريين، حتى من كان يظن في بداية الأمر أن انتصار الجيوش الفرنسية سيسمح لهم بالعيش في ظروف يتوافر فيها اللين ومتطلبات الكرامة الإنسانية. وهكذا راح كثير من المتعاونين الذين كانوا يعتقدون أنهم وجدوا في انضمامهم إلى صفوف الغزاة مخرجاً لوضعهم بين مطرقة القوات الفرنسية وسندان قوات المقاومة، يراجعون مواقفهم ويتسللون واحداً بعد الآخر من مراكزهم في خدمة الاستعمار، وينضمون إلى قوات المقاومة.

١٠- بيجو ينقل الصراع إلى المغرب

كانت العلاقة بين مملكة المغرب (تحت حكم السلطان عبد الرحمن) وبين الجزائر (تحت حكم الأمير عبد القادر) علاقة طيبة تعتمد على أواصر الأخوة والدين بين أفراد الشعب الواحد. وكان السلطان يتعاطف كثيراً مع قضية المجاهدين الجزائريين طوال سنوات الحرب ضد فرنسا. وزاد من قوة العلاقة ذلك الشعور بالإعجاب الذي حمله السلطان عبد الرحمن للأمير عبد القادر شخصياً، بسبب ما أظهره الأمير من ضروب الشجاعة والكفاءة العالية في إدارة أمور الدولة، في شؤون السلم والحرب. وأفاد المغرب بقدر ما أفادت الجزائر من هذه العلاقة التاريخية بين شعب البلدين المتجاورين. فكانت المقاومة الجزائرية تجد في المدن المغربية والموانىء السوق الضرورية لشراء الأسلحة والذخائر وغيرها من المتطلبات التي كانت تأتي بصورة خاصة من جبل طارق، وتمر عبر الحدود بمساعدة السلطات المغربية.

وكانت (طنجة) في الوقت ذاته مركزاً للاتصالات الدولية التي كان يجريها الأمير بصورة سرية- بين حين وآخر- مع قناصل الدول الأجنبية، بما في ذلك قنصل فرنسا. وقد أفاد المغرب في الوقت ذاته من التعاون مع الأمير عبد القادر لتأمين التجارة على الحدود الشرقية- وفيها وراء نهر ملوية بصورة خاصة- لا سيما بعد أن ألغى الأمير عبد القادر الضريبة التي كانت مفروضة على التصدير والاستيراد- الترانزيت- نظراً لمخالفة هذه الضريبة لأحكام الشريعة الإسلامية. وعلاوة على ذلك كله، فقد كانت الجزائر تمثل تجربة حية ومثالاً رائعاً للبلد المجاهد الذي يمكن أن يدخل فيه، أو يحذو حذوه، كل بلد مسلم يعمل ضد الغزاة الأجانب، وقد استمرت- الجزائر- طوال عقد ونصف، وهي الميدان الوحيد في العالم الذي يتاح فيه للمسلم أن يؤدي فريضة الجهاد، وأن يتقرب إلى الله بالاستشهاد في سبيل رفع راية الإسلام والدفاع عنه. وبايجاز، فقد كان تأييد المغرب للجزائر قائماً على الأخوة في الله، والمصلحة المشتركة في الحاضر والمستقبل. غير أن هذا الوضع البسيط لم يلبث أن جابه تحديات ثقيلة. فقد بات سلطان المغرب أمام موقف صعب، إذ ان أبناء المغرب كانوا يطالبون برفع راية الجهاد في المملكة لدعم إخوانهم في الجزائر. في حين أخذت الدول الصليبية (فرنسا واسبانيا والسويد والدانمارك) تمارس ضغوطاً قوية لتمنع المغرب من دعم المقاومة الجزائرية. وفي الوقت ذاته، أخذت هذه المقاومة تطلب إلى السلطان دعمها بصورة أكثر فاعلية بعد أن تعاظم ثقل الضغط الفرنسي عليها في غرب وهران، واضطر الأمير عبد القادر بنتيجتها إلى إقامة قاعدته في السهول التي تمتد في جنوب (وجده) وشرقها، على بعد ١٠ كيلومترات من المدينة المتاخمة للمغرب. وحاول الأمير عبد القادر اقناع سلطان المغرب بضرورة العمل يداً بيد مع المقاومة الجزائرية، غير أن السلطان- الذي استقبل الوفد الجزائري استقبالاً حاراً- امتنع عن التدخل، واكتفى باتخاذ موقف الحياد. وقام الأمير عبد القادر بالإغارة على القوات الفرنسية، والانسحاب إلى داخل حدود المغرب في محاولة لجر

فرنسا للعدوان على المغرب، ووضع المغرب وجهاً لوجه أمام العدوان الفرنسي. غير أن القادة الفرنسيين امتنعوا عن التورط في الصراع المباشر مع المغرب، إذ وضعوا باعتبارهم الظروف الدولية، وظروف الصراع على ساحة الجزائر ذاتها.

المهم في الأمر، هو أن (بيجو) قد تحرك لمجابهة هذا الموقف بالاتفاق مع وزير الحربية ووزير الخارجية، وباتخاذ كافة الاحتياطات الضرورية لمواجهة الطوارىء، وتعزيز المراكز العسكرية على مقربة من الحدود، مع إنشاء مراكز أخرى للدفاع في المرحلة الأولى، وللهجوم متى سمحت الظروف بذلك. وكذلك تقرر إنشاء ثلاثة مراكز عسكرية جديدة، اثنين في جنوب تلمسان في (سبدو) و(سعيدة) والآخر في (غرب تلمسان) عند (لالامغنية)- والتي كانت سلطات المغرب الأقصى تعتبرها جزءاً من أراضيها - وذلك عند مدخل سهول (وجدة) على مسافة (٢٥) كيلومتراً من هذه المدينة. وقد أثار احتلال الفرنسيين لبلدة (لالامغنية) هيجاناً كبيراً في (وجدة) حيث أعلن سكان المدينة الجهاد من تلقاء أنفسهم. وأمام هذه التطورات، أرسلت السلطات المغربية، قوات نظامية بقيادة (سي طيب القناوي) إلى المنطقة. وفي (٢٢- أيار- مايو- ١٨٤٤م) وجه القناوي إنذاراً إلى السلطات الفرنسية للجلاء عن (لالامغنية) ويطلب منها سحب القوات الفرنسية إلى الضفة الشرقية لنهر تافنة. وقد رد عليه الجنرال (لامورسيير) رداً معتدلاً متهرباً، قائلاً إنه يحتل هذا المركز الذي أقيم لتسهيل إخضاع (رعايانا) بناء على تعليمات رؤسائه. وفي ٣٠- أيار- مايو- سارت كوكبة من (فرسان المغاربة) في اتجاه المواقع الفرنسية- للاستطلاع-. ولما وصلت إليها أطلق بعض المتحمسين منهم النار على معسكر (لامورسيير) الذي كان مخيمًا عند ضريح (سيد عزيز). وقد وقعت إثر ذلك معركة بين الطرفين، انسحب المغاربة بعدها. ووصل (الماريشال بيجو) إلى (لالامغنية) يوم ١١ حزيران- يونيو- ١٨٤٤، حيث تولى بنفسه قيادة الجيوش الفرنسية استعداداً لمواجهة الموقف. وكان (بيجو) قد تلقى أخبار حادث اشتباك

القوات المغربية بالقوات الفرنسية لدى وصوله إلى (وهران) يوم ٥ حزيران- يونيو- وفي ذلك اليوم ذاته، كتب إلى قنصل فرنسا في (طنجة) ليبلغه تطورات الموقف، ويطلب إليه الاتصال بالسلطات المغربية، ليعرض عليها رغبة فرنسا في أن يعين السلطان أحد رؤساء جيشه ليتفاوض مع السلطات الفرنسية لرسم الحدود بين البلدين، وليطلب إليها أن تقوم باعتقال الأمير عبد القادر في إحدى مدن المملكة الساحلية إذا التجأ إلى المغرب الأقصى.

لم يكن (الماريشال بيجو) يرغب في دخول الحرب ضد المغرب، ولهذا كتب رسالة إلى (سي طيب القناوي) قائد القوات المغربية، يطلب إليه إجراء محادثات لتسوية النزاع، وتمت المقابلة يوم ١٦- حزيران- يونيو- غير أن قوات نظامية مغربية تدخلت وأطلقت النيران على القوات الفرنسية، وأمكن لها إحباط الاجتماع. وعلى الأثر، كتب بيجو إلى القناوي يبلغه عزمه على احتلال مدينة (وجدة) -لا للبقاء فيها- بل لطرد القبائل الجزائرية التي التجأت إلى المنطقة. ورد القناوي برسالة تضمنت عبارات المجاملة، غير أنها تجاهلت الخوض في الموضوع، فكتب بيجو رسالة أخرى جاء فيها: «**. . . نحن نريد الاحتفاظ بالحدود بين البلدين كما كانت مرسومة في عهد الأتراك وبعدهم في عهد عبد القادر. ولكننا نريد منكم ألا تستقبلوا عبد القادر وألا تمدوه بالمساعدة التي تعود إليه نشاطه بعدما كاد يقضى عليه، وتطلقوه في اتجاهنا. فإن هذا ليس بعمل ودي، بل هو عمل حربي. ونحن نريد منكم أن تعتقلوا عبد القادر والدائرة ورجاله، وتشتتوا شمل جيشه النظامي وقواته غير النظامية، وألا تستقبلوا القبائل التي تهاجر من أراضينا إليكم، بل تعيدوها أدراجها بمجرد وصولها إليكم. وبتنفيذ هذه الشروط سنكون أصدقاءكم. ولكنكم، إذا أردتم غير ذلك، فنحن أعداؤكم، أجبني فوراً ومن غير لف أو دوران، لأنني لا أفهم اللف والدوران**».

لم يتلق (بيجو) رداً على رسالته- الإنذارية- فزحف بقواته على (وجدة)

واحتلها من غير مقاومة، حيث كان (القناوي) قد انسحب منها بجيشه واتجه إلى (تازا). وطبقاً للخطة التي أعلنها، فإن (بيجو) لم يبق سوى يوم واحد في (وجدة) ثم عاد إلى (لالامغنية) حيث أشرف على إكمال تحصينها.

التزم (السلطان عبد الرحمن) بالصمت التام. وتجاهل الإنذارات الفرنسية المتتالية، كما تجاهل تلك المعارك التي وقعت عند (لالامغنية) وما رافقها من انتهاك لحرمة حدود المملكة المغربية. وقيل إن هذا الموقف الذي ينم عن الهدوء والثقة، كان نتيجة لتشجيع ممثلي بريطانيا (الجنرال ويلسن في جبل طارق ودورموندهاي القنصل البريطاني في طنجة) اللذين نصحاه بمقاومة الضغوط الفرنسية بالوسائل الديبلوماسية. وقد حاول الملك الفرنسي لويس فيليب ورئيس وزرائه تهدئة المخاوف البريطانية، كما التزما جانب الاعتدال في تصريحاتهما. كما تم تزويد (ابن الملك ـ دومال) بتعليمات معتدلة في الظاهر، وهي تقضي «بأن يتخذ موقفاً سلبيًا بصفة عامة ـ إلا إذا تعرض العلم الفرنسي للإهانة». وأرسلت الحكومة الفرنسية تعليماتها إلى (بيجو) بالتزام الاعتدال في سلوكه وممارساته. وفي نطاق هذه السياسة التي تستهدف تخدير بريطانيا حتى تفسح المجال للمناورات الفرنسية الاستعمارية، استقبل الملك ـ لويس فيليب ـ سفير بريطانيا في باريس وأكد له، أنه في حالة عدم إمكان تجنب وقوع الحرب: «فإن المرجح أن تكون هذه الحرب قصيرة، ولو أنها ستكون شديدة».

باتت المسألة الحقيقية التي تشغل الآن اهتمام (بيجو) هي العثور على الطريقة التي تمكنه من استغلال حوادث الحدود، بعد أن أدرك أن النزاع مع المغرب قد وصل إلى مأزق لا مجال للتراجع فيه أو النكوص عنه، والإفادة من المطالب المتطرفة التي قدمها باسم فرنسا من أجل تحويلها إلى أسباب لحرب يخوض هو غمارها ويكون له هو وحده ـ دون غيره ـ شرف كسبها، والحصول على مجد الانتصار فيها بدون منافس ـ حتى لو كان هذا المنافس هو ابن الملك ذاته ـ. ومهما يكن من أمر، فإن ابن الملك (جوان

فيل)[١٨] كان قد قاد أسطوله في تلك الفترة، واستدعى قنصل فرنسا في (طنجة) فأركبه على متن إحدى سفن الأسطول، ووجه إنذاراً إلى السلطات المغربية، أكد فيها المطالب الفرنسية، وحدد مهلة ثمانية أيام لإعلان قبولها، ولما لم يتلق منها رداً مباشراً (ولو أنه تلقى رداً غير مباشر بالقبول عن طريق قنصل بريطانيا) شرع في قصف (طنجة) بمدافع الأسطول يوم ٦ـ آب ـ أغسطس ـ ١٨٤٤. ثم انتقل لقصف الصويرة (موجدور) يوم ١٥ ـ آب ـ أغسطس ـ وقد ظلت النيران تشتعل في المدينة الأخيرة طوال سبعة أيام كاملة. وكذلك أنزل الأسطول الفرنسي حامية تتكون من (٥٠٠) ضابط وجندي احتلت جزيرة تقع عند مدخل ميناء المدينة. وفي هذه الأثناء، وضعت السلطات المغربية الجيش الذي كلفه السلطان بحماية الحدود الشرقية تحت قيادة ابن السلطان (سيدي محمد) الذي ضرب معسكره عند (وادي ايسلي) على مسافة ثمانية كيلومترات إلى الشمال الغربي من (وجده).

تلقى (الماريشال بيجو) رسالة من (جوان فيل) يوم ١١ ـ أيلول ـ سبتمبر ـ ١٨٤٤، يعلمه فيها بقيام الأسطول الفرنسي بقصف (طنجة) و(موجدور). وفي ١٣ منه، وصل إلى (بيجو) أمر من الحكومة يقضي بعدم تجاوز الحدود المغربية. ولكن (الماريشال بيجو) ضرب بالأمر عرض الحائط، وهيأ في الغد جيشه الذي ضم (١١,٥٠٠) ضابط وجندي. ثم عبر النهر، ودخل في معركة مع الجيش المغربي الذي قدر الفرنسيون قوته بين (٢٥ـ و ـ٣٠) ألف جندي. والتقت القوتان المتصارعتان على ضفاف (نهر ايسلي) في معركة قصيرة وحاسمة استمرت من الصباح حتى الزوال، وانتهت بهزيمة القوات المغربية هزيمة منكرة، واستولى الجيش الفرنسي إثر ذلك على خيمة (سيدي محمد) ومظلته و(١٨) من أعلامه و(١١) مدفعاً،

---

(١٨) جوان فيل (JOINVILLE, FRANCOIS DE BOURBON — ORLEANS) الابن الثالث للملك لويس فيليب، واميرال البحر، من مواليد (نويي: NEUILLY) (١٨١٨ـ ١٩٠٠م).

وغير ذلك من الغنائم التي لا تحصى. وقد قدر (بيجو) عدد قتلى الجيش المغربي (بثمانمائة قتيل) و(١٥٠٠- ٢٠٠٠) جريح، بينما لم تتجاوز خسائر الجانب الفرنسي من القتلى (٤) ضباط و(٢٣) جندياً، وعدد الجرحى (١٠) ضباط و(٣٦) جندياً.

وحقق (بيجو) هدفه، إذ ان هذا النصر الحاسم، وتلك الخسائر غير المتعادلة بين الجانبين، هي التي ستضمن بريقاً جديداً لعصي الماريشال الذي سيخلع عليه الملك لقب (دوق ايسلي) في الوقت الذي ظل فيه اسم ابن الملك (بطل الصويرة) خاملاً، ولم يعتبر لعمله أية قيمة سياسية أو عسكرية. وعلى كل حال، فقد أدت هذه الضغوط العسكرية إلى توقيع معاهدة صلح بين فرنسا والمغرب- تم توقيعها في (طنجة) يوم ١٠، أيلول، سبتمبر، ١٨٤٤-. ونصت بنود المعاهدة على امتناع سلطان المغرب عن تقديم أية مساعدة بالسلاح والذخيرة وسواها من لوازم الحرب للأمير عبد القادر أو أي ثائر آخر، أو لأي عدو لفرنسا. كما نصت المادة الرابعة من الاتفاقية- المعاهدة- على اعتبار الأمير عبد القادر خارجاً على القانون في جميع أنحاء المملكة المغربية وفي الجزائر على السواء. وتبعاً لذلك، تفرض مطاردته بالسلاح في الجزائر والمغرب، حتى يطرد من أحد البلدين، أو يقع في قبضة سلطاته. وفي حالة وقوعه في يد حكومة جلالة أمبراطور فرنسا (وهذا هو اللقب الذي أطلق على لويس فيليب) فإن (الامبراطور) يتعهد بأن يعامله معاملة حسنة- باحترام وكرم-. وفي حالة وقوعه في قبضة السلطات المغربية، يتعهد السلطان بأن يعتقله في إحدى مدن الشواطىء الغربية في المملكة، وذلك حتى تتفق الحكومتان على الإجراءات الضرورية لمنع الأمير من «حمل السلاح من جديد، وتعكير الهدوء مرة أخرى- في الجزائر والمغرب الأقصى». وأعقب ذلك توقيع الطرفان المغربي والفرنسي اتفاقية لرسم الحدود- نصت عليها معاهدة طنجة في ١٨- آذار- مارس- ١٨٤٥، ودخلت (لالامغنية) بموجب هذه المعاهدة في حدود الأراضي الجزائرية الخاضعة لحكم فرنسا وكانت المغرب تعتبرها دائماً من أراضيها.

ومنحت المعاهدة في الوقت ذاته (القصور السبعة- في الفجيج) للمملكة المغربية. واعتبرت الصحراء (منطقة محايدة).

*. *. *. *.

ما إن فرغ (الماريشال بيجو) من معركة (ايسلي) حتى عاد إلى (الغزوات) ومن هناك، أبحر إلى الجزائر، حيث تولى شخصياً إدارة الحرب في منطقة (بلاد القبائل) التي كانت لا تزال خاضعة في معظمها للثائر (ابن سالم). ثم أبحر إلى فرنسا في ١٦ تشرين الثاني- نوفمبر- ١٨٤٤.

وإذن، فإن الحرب الجزائرية لم تتوقف، بالتوقيع على المعاهدة المغربية- الفرنسية. غير أن (بيجو) اعتقد أن من واجبه عرض الموقف بصورة مشرقة، ومثيرة للتفاؤل المفرط، وذلك أثناء إقامته في فرنسا، وخاصة عندما أعلن برنامجه السياسي للجزائر أمام مجلس النواب في جلسة يوم ٢٤ كانون الثاني- يناير- ١٨٤٥، حيث صرح بقوله:

«... أنتم تعلمون أن عبد القادر قد طرد من مختلف أطراف صرح- الغرانيت- الذي شيده، فقد قمنا بهدم هذا الصرح قطعة قطعة، كما أخضعنا القبائل واحدة بعد واحدة، ودفعنا بالأمير عبد القادر إلى ما وراء حدود المغرب الأقصى. وهذا معناه أنه لن يعود إلى الجزائر خطيراً، ولكنه قد يعود لمضايقتنا، وهذا هو السبب الذي يجعل من الضروري الاحتفاظ بقوتنا» ويمضي- بيجو- وهو يوجه حديثه إلى النواب: **«إنكم لم تقنعوا بإخضاع البلد، بل انكم زيادة على ذلك، نظمتم حكم العرب بطريقة تتسم بالبساطة، ونظام الحكم الذي نطبقه في الجزائر هو ذات النظام الذي اعتمده عبد القادر. ونظراً لأننا نعتبر عبد القادر رجلاً عبقرياً، وأنه ليس بإمكاننا أن نضع أحسن منه، فنحن غيرنا الرجال، وتركنا الأشياء على ما هي عليه»**.

ولكن الأمير عبد القادر (الذي رأى بيجو- دوق ايسلي- أن يرثيه، أو

ينعيه، بهذه العبارات في البرلمان الفرنسي) لم يمت، بل هو حيّ، ولم يفقد شيئاً من نشاطه على ضفاف (نهر ملويه) حيث كان يراقب تطورات الموقف عن كثب، ويتحين الفرصة الملائمة للوثوب على العدو. فهناك كان يتلقى الإمدادات من رجال القبائل الهاربين من حكم الاستعمار، ويتسللون عبر الحدود بين المراكز العسكرية، وينضمون إلى الدائرة، حيث يتنافسون في الاقتراب بخيامهم من خيمته، والاستظلال بعلمه. ومن هناك كان يرسل الأمير رسله إلى القبائل في جميع أنحاء الجزائر، مذكياً في رجالها جذوة الجهاد، مثيراً فيها روح الحماسة للمقاومة ضد ثقل الهجمة الاستعمارية-الاستيطانية. وكانت (جبال الظهرة) و(وادي الشلف) من المناطق التي تعرضت أكثر من غيرها لمختلف أنواع القهر والقمع، حتى بات الحكم الفرنسي فيها من الشدة والعنف بما لا يطاق ولا يحتمل، فلا عجب ولا غرابة أن يبلغ الهيجان في النفوس حد الثورة الكامنة التي تنتظر من يفجرها. وجاء رجل القدر ممثلاً برجل اسمه (محمد بن عبدالله) لقب نفسه بلقب (أبو معزة) ووضع لنفسه هدفاً هو (تحرير الجزائر من الكفار). ومن جبال الظهرة، انتشرت الثورة كالنار في الهشيم، في كل من (ولاية تيتري) و(منطقة الحضنة).

١١ـ الصفحة الأخيرة من حياة بيجو في الجزائر.

حدثت تطورات خطيرة على ساحة الصراع المسلح في الجزائر، ولم تكن هذه التطورات يقيناً في مصلحة الاستعمار الفرنسي. فقد دارت معركة في (سيدي إبراهيم- جبل كركور) أباد فيها المجاهدون حملة فرنسية في يوم ٢٣ أيلول- سبتمبر- ١٨٤٥. وكانت هذه الحملة تضم (٣٤٦) مقاتلاً من قناصة أورليان و(٦٧) فارساً من الهوسار، لم ينج منها إلا (١٥) فرداً وقعوا في الأسر. وفي هذا اليوم ذاته، كانت حملة فرنسية أخرى تحاول القضاء على المقاومة (في قبيلة بني ورسوس) غير أن المقاومة أجبرتها على الانسحاب نحو تلمسان لتغطية محاور الاقتراب اليها ودعم حاميتها. وفي يوم ٢٧ أيلول-

سبتمبر- توجهت حملة من (٢٠٠) ضابط وجندي نحو الشرق بمهمة دعم حامية (تيموشنت). ولما وصلت هذه القوة إلى (سيدي موسى) وجدت نفسها مطوقة بقوات عربية (لا تزيد على ٧٣ رجلاً) فعملت على إلقاء أسلحتها والاستسلام من غير مقاومة. وأدى هذا النجاح الرائع في أسبوع واحد، إلى تعاظم روح المقاومة في كل مكان، الأمر الذي حمل (لامورسيير) على الكتابة في يوم (٣٠- أيلول- سبتمبر) بما يلي: «**لقد أصبح عبد القادر الآن سيد البلاد التي تمتد بين الحدود الشمالية وأعالي نهر تافنه. إنه نجاح هائل للأمير عبد القادر. وأنا أشعر أنني عاجز عن وضع العوائق أمام زحفه**». وفي الجزائر، بعث (لامورسيير) قوات لتعزيز- قوات وهران- بعدما بلغه خبر هزيمة سيدي إبراهيم- وقبل أن ينتقل لإدارة الحرب في وهران، كتب إلى وزير الحربية (سولت) رسالة في ٢٧- أيلول- سبتمبر- جاء فيها: «**يجب ألا أكتمكم أن الوضع أصبح خطيراً جداً. لقد ارتكبت أخطاء بشأن عدد من المسائل. وبعض هذه الأخطاء، هي أقل خطورة في حد ذاته، منها بالقياس إلى عواقبها**». وتفاقم التهديد الذي يواجهه الفرنسيون على الحدود المغربية، خصوصاً بظهور (أبي معزة) في (وادي فضة- في الشرق) حيث برز في عدة لقاءات مع العدو، وبلغت به الجرأة أن ضرب تحصينات (مستغانم) وأسوارها. وكذلك انتشرت الثورة بسرعة في جنوب (تلمسان)- وقد بدأت (ثورة القبائل) التي تقيم في هذه المناطق بنصب كمين في (سبدو) للكتيبة المرابطة في المدينة، في أول تشرين الأول- اكتوبر- ١٨٤٥. فسقط عدد كبير من أفراد الكتيبة، بما فيهم قائد الكتيبة. وانتشرت روح التذمر والثورة بين القبائل المجاورة (لوهران) التي عانت أكثر من غيرها من الاستعمار.

*. *. *. *.

كان (بيجو) يستريح في بلدته، حينما استدعاه وزير الحربية، وطلب إليه السفر لإعادة الأمور إلى نصابها. ولما نهض لتلبية هذا النداء، صرح

بما عرف عنه من التواضع وإنكار الذات، بأنه كان على ثقة: «من أنه لا غنى عنه لاسترجاع زمام الأمور». وسافر يوم ١٣ تشرين الأول- اكتوبر- ١٨٤٥، فوصل إلى الجزائر يوم (١٥) منه. وكان أول ما فعله هو توجيه أعنف التوبيخ إلى (لامورسيير) و(كافينياك) لعدم تطبيقهما أوامره، ولقيامهما بمبادرات تتناقض مع أوامره وتعليماته التي كان يصدرها من فرنسا. ولم يجرؤ أحد بالطبع على تذكير (دوق ايسلي)، بتصريحاته في البرلمان وخارجه: (من أن حرب الجزائر قد انتهت)...

لم تكن تصريحات (بيجو) لتخدع أحداً. فأما الحكومة التي تمد الجزائر بموارد بشرية ومالية، فهي تعرف أن هذه الموارد كانت في تزايد مستمر. وأما الرأي العام، الذي هيمن عليه الملل من سماع أخبار المعارك التي تدور في الجزائر، فإنه كان يستطيع أن يعرف حقيقة الموقف، من خلال مناقشات البرلمان، وما تتناقله الصحافة من مقولات وأحداث تدحض أكاذيب (بيجو) وافتراءاته. وأما الجيش العامل في الجزائر والذي كان منتشراً، مشتتاً، على امتداد الجبال والصحراء، وهو على استعداد دائم للهجوم أو للدفاع، فإن هذا الجيش كان في موقف يسمح له بتقويم أقوال بيجو- بأنه قضى على المقاومة- تقويماً صحيحاً وواقعياً. والحقيقة- كما عبر عنها القبطان تروشو- هي أن (بيجو) كان يدرك جيداً: «أن الشعرة الرقيقة التي ربطت بها العناية الإلهية أسماء الشخصيات الكبيرة، وسيرهم، يكون من الصعب ربطها من جديد متى انقطعت».

المهم في الأمر هو أن (بيجو) قدم إلى الجزائر في هذه المرة، وتحت تصرفه جيش يضم (١٠٦) آلاف مقاتل بين ضابط وجندي. وكان هذا الجيش الذي حمل اسم (جيش أفريقية) قد بات وهو مجهز بأحدث الأسلحة، واكتسب خبرة واسعة بقتال العرب، وتوافرت له معرفة جيدة بالأرض، علاوة على مستوى تدريبه الجيد. وكانت الكتلة الرئيسية لهذا الجيش قد تمركزت في ولاية (وهران) أو بعبارة أدق، في مناطق الحدود

الغربية الجنوبية. وهذا العدد، وهذه القدرات، هي التي سيحتاج إليها، وسيستعملها (بيجو) من أجل تنفيذ المهمة التي حددها له (الماريشال سولت- وزير الحرب الفرنسي) في رسالته المؤرخة بتاريخ ٢٣ تشرين الأول- اكتوبر- وفيها: «**الأمر الأساسي، هو أن تقضي على ثورة مختلف القبائل في ولاية وهران، وتطرد عبد القادر منها، وتدمر قواته، إذا لم يكن بالمستطاع القضاء عليها**».

بدأ (بيجو) عملياته، كما هي عادته، بالإنذار والوعيد في بلاغات للقبائل «**بأنه سينزل بهم الويل والثبور إن هم لم يصموا آذانهم عن سماع أقوال هذا الطموح المزيف الذي يدعي أنه سلطانكم. والذي لا يهمه أن يضحي بكم. وكل غرضه هو أن يحقق طموحه**» ويمضي البيان فيذكر القبائل بنعم فرنسا عليهم، فيقول: «**ألم نرد إليكم نساءكم وأطفالكم وشيوخكم- بعد المعارك-؟ وفي بعض الأحيان جزءاً من قطعانكم أيضاً!؟ فإذا فضلتم على هذا الحكم الأبوي حكم عبد القادر المستبد القاسي، فسيكون ذلك لأنكم فقدتم هداية السماء (...) وحينئذ، لا تلومون إلا أنفسكم لما سيلحق بكم مما بحثتم عنه بأنفسكم، فأنا قد عدت ومعي جيشان!**».

وضع (بيجو) نظاماً محكماً للقمع والتدمير والإبادة بهدف القضاء نهائياً على الثورة المتعاظمة. وقاد بنفسه القوات لإخضاع القبائل الثائرة، كما وجه ثلاثة فيالق لمطاردة (أبي معزة) بقيادة (سانت أرنو) و(لادميرو) و(بيليسي). وقد نفذت قوات هذه الفيالق تعليمات (بيجو) وتوصياته (بدقة وأمانة). وارتكبت من الجرائم ما لا يمكن وصفه(*).

(*) انظر في نهاية الكتاب (قراءات -٤- الارتال الجهنمية، بيجو وحرب الابادة) وفيها بعض ملامح عملية القمع الاستعماري.

كان (الماريشال بيجو) طوال سنوات عديدة يحارب عدواً منظم الصفوف، مطاعاً في قومه، وينتهج أساليب في القتال والسياسة، تمتزج فيها بنسب دقيقة الروح الدينية والوطنية بالعقلانية الغربية. فكان الرجل- الأمير عبد القادر- يفهم خصمه، ويعرف موارده وإمكانياته، ويحسب حساب خلفائه، ويعرف عدد أفراد القوات التي يستطيع كل واحد منهم تجنيدها، كما كان يعرف قوة أعدائه ومواقعهم، وكان باستطاعته نتيجة لذلك معرفة ردود فعل هؤلاء الأعداء، ومحاور تحركاتهم، والأهم من ذلك، أنه كان يعرف بدوره أيضاً ما يعرفه العدو عن إمكاناته ونقاط ضعفه وقوته، والظروف التي تسمح له بالدخول في المعركة أو تفرض عليه تجنبها. وهذا التفاهم الضمني الذي فرضه (التعايش القسري) على الأرض الجزائرية، وتحت سمائها، والذي يقوم على أساس من الكره المتبادل واحترام كل من الطرفين لقوة الآخر، كان عاملاً من شأنه أن يسهل على الخصمين التخطيط العسكري، وتنظيم المعارك، ويجعل الحرب التي يخوضها (بيجو) وجيشه في جبال الجزائر وصحاريها، أقرب إلى الحروب التقليدية- الكلاسيكية- التي عرفها تحت لواء الأمبراطور نابليون بونابرت في أوروبا، منها إلى حرب الجبال والأدغال. ولكن تحطيم التنظيم العسكري والجهاز السياسي للأمير عبد القادر، وتقويض سلطانه على القبائل بعد احتلال مدنه، وحرمانه من كل مورد مالي منتظم، ثم مطاردته، واعتباره خارجاً على القانون في داخل حدود البلد وخارجها، جعل الحرب تجري على غير ما ألفه الفرنسيون على امتداد نحو من خمسة عشر عاماً. حيث أخذت تتحول تدريجياً في ظروف من الفوضى، من حرب بين دولتين وجيشين نظاميين، إلى حرب شعبية من النوع الذي يطلق عليه اليوم اسم (حرب العصابات) يقودها زعماء محليون، لا ملامح لهم. تخلقهم (صدف الحرب) و(تقلبات الظروف). وهكذا فعندما عاد (بيجو) إلى الجزائر، بالرغم من أنه لم يغب عنها طويلاً، وجد أمامه عدداً من زعماء المقاومة، الذين يقودون الثورة في مختلف أنحاء الجزائر، وكلهم

يطلقون على أنفسهم لقب (أبو معزة)(*) وأنهم كلهم يتمتعون بمقادير متفاوتة من النفوذ المعنوي- الأدبي- بين القبائل، حيثما كانوا.

وهكذا، فإن (بيجو) لم يحاول لدى وصوله إلى الجزائر الزحف إلى الغرب لمطاردة الأمير عبد القادر، ولأخذ الثأر لمعركة (سيدي إبراهيم)، كما صنع اثر وصوله إلى الجزائر عقب معركة المقطع- وإنما هو اتجه أولاً للقضاء على الثورات الصغيرة التي كان يقودها زعماء محليون في شرق ولاية (وهران) والتي كان يتخوف من أن يقوم اتصال بينها وبين الأمير، وتكون وقوداً لثورة شاملة.

اتجه (بيجو) إلى منطقة (مليانة) في ١٧ تشرين الثاني- نوفمبر- ١٨٤٥. وبينا كان يعمل على ضفاف (نهر شلف) بلغته أخبار تقول بأن زعيمًا يدعى (أبو معزة) يقود حركة في (منطقة جرجرة) وأنه عقد حلفاً مع خليفة الأمير (ابن سالم) لتوحيد قواتها وجهودهما. وواجه (بيجو) هذا التحدي الجديد في منطقة حساسة تقع غير بعيد عن مدينة (الجزائر) فأرسل جيشاً إليها في شهر كانون الأول- ديسمبر- ١٨٤٥. غير أن قوات المقاومة لم تكن تسمح للفرنسيين بمهاجمتها، فكانت توجه لهم الضربات السريعة، والموجعة، وتنسحب بعيداً عن مسرح العمليات. وقد أحدثت هذه الضربات الحاسمة وغير المتوقعة، اضطراباً كبيراً في صفوف القوات الفرنسية، مما

(*) كان محمد بن عبد الله- الملقب بلقب أبو معزة الأول- من مواليد سنة ١٨٢٥ تقريباً. عاش مناخ الحرب، وعمل تحت راية الأمير عبد القادر، ثم تزعم الثورة في جبال الظهرة ووادي الشلف، ونجح بتنفيذ عدد من الاعمال القتالية الرائعة، حتى إذا ما طاردته القوات الفرنسية، التجأ إلى الأمير عبد القادر، وأقام معه فترة من الوقت، ثم عاد إلى (منطقة الظهرة). غير أن أعمال القمع الوحشية التي مارستها القوات الفرنسية حرمته من العمل، فاستسلم للفرنسيين في ١٣- أيار- مايو- ١٨٤٧ للجنرال (سانت آرنو). ولما نقل إلى الجزائر، استقبله (بيجو) استقبالاً حسناً. وبعث به إلى باريس حيث أنزل في فندق (في الشانزيليزه) وخصص له راتب (١٥٠٠) فرنك، وهناك، لمع اسم (أبو معزة) من جديد، ولكنه ليس في المعارك الحربية، بل في صالونات الطبقة الارستقراطية حيث كان يغدو ويروح في رفقة سيدات المجتمع الراقي!... حتى سمح له بالانخراط في الجيش العثماني في أثناء حرب القرم سنة ١٨٥٤- برتبة عقيد- كولونيل- (المقاومة الجزائرية- اسماعيل العربي- ص ٢٨٨- ٢٨٩).

دفع (بيجو) لحشد كل إمكاناته العسكرية لمواجهة الموقف في كل مكان. وشكل لذلك ١٥ـ ١٨ فيلقاً كانت في حركة مستمرة، في جميع الأوقات، لا سيما في المناطق الجنوبية والغربية.

*. *. *. *.

بذلت الأرتال الفرنسية التي كانت تعمل تحت قيادة كبار ضباط فرنسا، كل ما تستطيعه من الجهد طوال سنة ١٨٤٦، بهدف إخماد المقاومة، غير أنها عجزت، وبكل الوسائل القمعية والأساليب الإرهابية التي استخدمتها من القضاء على جذوة الثورة المتوهجة. ففي كل مرة كان يظهر للقيادة الفرنسية أنها نجحت في القضاء على المجاهدين في منطقة من المناطق إذا بها تجد أن لهيب الثورة قد اندلع في منطقة ثانية، وبينما تكون القوات الفرنسية محتشدة في منطقة من المناطق إذا بأعمال العنف تظهر في منطقة يخف فيها ضغط القوات الفرنسية، وهكذا، فلما تعبت القوات الفرنسية من توجيه ضرباتها في الفراغ، أصدرت القيادة أوامرها التي تقضي بأن يقوم القائد الذي يعثر على أثر للمقاومة، بإطلاق مدفع لتنبيه بقية القادة، ولتوجيههم إلى موقعه حتى يسارعوا إلى نجدته ويحاصروا المنطقة من جميع الجهات. وعلى الرغم من ذلك، فقد استمر الصراع المرير في ظروف مثيرة، وتكبدت القوات الفرنسية خلال ذلك خسائر فادحة، ولعل من أبرز معارك هذه السنة هي تلك التي اختتم فيها الأمير عبد القادر عام ١٨٤٦، ففي شهر كانون الأول- ديسمبر- وبينما كان الأمير يؤمن حماية بعض القبائل المهاجرة إلى المغرب الأقصى، عثر (لامورسيير) على الأثر، وأطلق المدفع لإشعار زملائه بذلك، وتجمعت في المنطقة على الفور أربعة فيالق (بقيادة بيجو ولامورسيير وبيدو ويوسف). ولكن الأمير الذي كانت جواسيسه تعمل دونما كلل، استطاع النجاة من قبضة الكماشة التي نصبت له- بأعجوبة- وبعد ثمان وأربعين ساعة، كان يقوم بعمليات واسعة النطاق في جبال (الورسينيس). ولما بلغت أخباره إلى القيادة الفرنسية العليا،

سارت في أثره جيوش (بيجو) وسانت آرنو ويوسف ولامورسيير). ولكنه نجح من جديد في التسلل من قبضتهم، والأسوأ من ذلك، أنهم فقدوا كل أثر له هذه المرة. ولكن الأمير، سيظهر مرة أخرى في (منطقة تاملا) يوم ٢٣ كانون الأول ـ ديسمبر ـ ١٨٤٦. وسيترك للجيش الفرنسي حرية تعقب أثره، متظاهراً بالفرار من أمامه، مما زاد من حماسة المطاردة في نفوس الفرنسيين. وبعدما استدرجهم الأمير، تحت وابل الأمطار، إلى الموقع الذي اختاره هو للمعركة، ورأى أن الجهد والإعياء أخذ يثقل على الجنود وخيولهم، انقلب عليهم بجيشه الذي لم يزد عدد أفراده على (٨٠٠) فارس. وواجههم في معركة عانى فيها الفرنسيون إلى جانب الصعوبات المذكورة، من جهلهم بالمنطقة، وعدم ملاءمة طبيعة أرض المعركة لهم. ولولا وصول قوة من المشاة بصورة لم تكن متوقعة إلى المكان، لأسفرت هذه المعركة عن واحدة من أكبر الهزائم التي عرفها الفرنسيون منذ احتلوا الجزائر. ولما رجعت القوات الفرنسية أدراجها، تاركة في مكان المعركة عدداً كبيراً من القتلى، قرر الأمير البقاء في المنطقة لإثبات انتصاره، ولكي يتيح لجيشه ولخيوله وقتاً للراحة والاستجمام. ونتيجة للمعارك والمناوشات والسير مسافات طويلة في ظروف مناخية قاسية وتحت وطأة التوتر العصبي المستمر، وقع كثير من القادة الفرنسيين ضحايا المرض والإجهاد. فعاد (بيجو) بقوة تتكون من (٣٠٠) من الضباط والجنود المرضى والجرحى وبمائتين وخمسين فرساً غير قادرة على العمل إلى مدينة (الأصنام). وأدى انسحاب (بيجو) إلى ظهور فراغ استغلته المقاومة لتطوير أعمالها القتالية، وتوجيه تهديدها إلى (وادي شلف) وإلى مدينة (الجزائر) ذاتها. ولما كانت مدينة الجزائر وضواحيها بدون حماية عسكرية، فقد عمل (بيجو) على اتخاذ تدابير الحيطة لمجابهة الخطر المحتمل، فأصدر أوامره من (وهران) برقية تقضي بالإفراج عن المساجين وتسليحهم لتشكيل قوة دفاعية من ـ الميليشيا ـ واجبها حماية المدينة والقرى المجاورة لها.

*. *. *. *.

كانت القوات الفرنسية مع بداية سنة ١٨٤٧ تجوب أطراف الصحراء بحثاً عن المقاومة، وفي تلك الفترة كانت قوات المجاهدين- بقيادة الأمير عبد القادر- قد انحدرت إلى سهول (متيجة) ثم اتجهت إلى جبال (جرجره) حيث انضمت إليها قوات الخليفة (ابن سالم) وقوات الثائر (أبو معزة) وسواها. وتمكنت القوات الفرنسية من مباغتة القوات العربية في (جبال جرجره) ودارت معركة قصيرة وحاسمة. تمكنت خلالها قوات المجاهدين من مغادرة ميدان المعركة تحت جنح الظلام. وعندما بلغت (بيجو) أخبار هذه المعركة، سار بنفسه إلى المنطقة، ولما كانت قوات المجاهدين قد انسحبت منها، فإنه لم يبق أمام (بيجو) إلا أن يقوم بدور الجلاد الذي أتقن ممارسته، فأنزل العقاب الصارم بالقبائل التي اتهمها بإيواء المجاهدين ومساعدتهم. وكان هذا الاتهام وحده كافياً للتذرع به من أجل تدمير القرى وتخريب الزرع والقتل والإبادة.

وبعد هذه العملية، قاد (بيجو) حملة أكبر- متجاوزاً تعليمات وزارة الحربية- تتكون من جيشين قاد هو بنفسه أحدهما يبلغ عدد رجاله (٨) آلاف ضابط وجندي، انطلاقاً من (سور الغزلان). ووضع الجيش الثاني تحت قيادة (الجنرال بيدو) ويتكون من (٧) آلاف مقاتل. انطلق من (سطيف) والتقى الجيشان عند (بجاية) التي فكوا حصار المجاهدين عنها، وفي الطريق إليها، توغلوا في جبال (بني عباس) و(القبائل الصغرى) التي دمروا قراها لمعاقبة أهلها على ما أبدوه من روح المقاومة للغزو الاستعماري وكان ذلك خلال شهري مايو ويونيو (أيار وحزيران ١٨٤٧).

أثمرت جهود (بيجو) أخيراً، ففي ٢٧ شباط - فبراير - ١٨٤٧ قصد (ابن سالم)، آخر خلفاء الأمير عبد القادر الذين كانوا يحتفظون بقيادتهم في الجزائر، إلى (سور الغزلان - أومال) وطلب الأمان. وفي ١٠ نيسان - ابريل - قصد الزعيم القبائلي (بلقاسم أوقاسي) وعدد من زعماء المقاومة في (جرجرة) إلى الجزائر، حيث استقبلتهم السلطات الفرنسية بكثير من مظاهر الحفاوة والتشريف الذي يستحقه أعداؤهم الأبطال. وفي ١٣

نيسان ـ أبريل ـ استسلم الزعيم (أبو معزة) للفرنسيين. وبذلك فرضت القوات الفرنسية هيمنتها على التل، وأغلقت الحدود المغربية في الشمال، في وجه القبائل التي تنوي الهجرة إلى المغرب، ومنعت تسرب عناصر المقاومة من المغرب إلى الجزائر. واتجهت الجيوش الفرنسية إلى الجنوب واقتحمت الصحراء التي بقيت حصناً منيعاً لم يجرؤ الغزاة في مختلف العصور على الاقتراب منه. فوصلت هذه القوات إلى (عين ماضي) و(توات) و(البيوض) حيث أراضي أولاد (سيدي الشيخ) الذين استطاعوا الاحتفاظ باستقلال المنطقة الواقعة على أطراف الصحراء الجنوبية الغربية، عبر العصور. وهناك بسط جنود فرنسا سلطانهم على (القبائل الصحراوية). وجعلوا من الواحات قواعد لعملياتهم من أجل القضاء على كل أثر للحرية عرفتها الجزائر المجاهدة.

أدرك (بيجو) أن دوره قد انتهى، فعمليات القمع قد بلغت مداها، والمقاومات المتفرقة قد انتهى أجلها، وشعر أن منكبيه قد وهنا لما حملاه من أعباء السنين، ولما أثقلها من أعمال القتل والتدمير والإبادة. كما سئم من هجمات المعارضة في مجلس النواب ـ البرلمان ـ ومن الصحافة التي ما انفكت تطارده بتعليقاتها وانتقاداتها. ثم ماذا بقي ليكسبه في الجزائر؟ المجد العسكري، أم النفوذ السياسي، أم اللقب الارستقراطي؟ لقد كسبها كلها. وأما حفلات إزاحة الستائر عن تماثيله التي ستقام في الجزائر، على عادة الرومان، فهي مهمة فضل أن يتركها لغيره. وهكذا طلب (بيجو) إعفاءه من أعماله (الحاكم العام للجزائر، والقائد الأعلى لجيش أفريقية). وعين مكانه نجل الملك لويس فيليب (الدوق دومال) الذي وصل إلى الجزائر في تشرين الأول ـ اكتوبر ـ ١٨٤٧. والذي لم يكن بدوره شخصاً بعيداً عن أحداث الجزائر، إذ ارتبط اسمه بعملية (نهب الزمالة ـ والقضاء على العاصمة المتنقلة للأمير عبد القادر).

غادر (بيجو) الجزائر، تاركاً فيها سجله الأسود الذي لا تمحوه الأيام، وترك لخلفه أيضاً (الدوق دومال) مهمة قطف الثمرة الأخيرة من جهوده،

ألا وهي القضاء على آخر معاقل المقاومة للأمير عبد القادر. ذلك أن الأمير وجد الدائرة تضيق من حوله، والقوم ينفضون عنه وقد أرعبتهم أعمال الإرهاب ودمرتهم. ووجد نفسه في النهاية بين مطرقة الفرنسيين وسندان المغرب. فاستسلم للدوق دومال عند ضريح سيدي إبراهيم، وهو المكان الذي شهد أعظم انتصاراته، وذلك يوم ٢٣ كانون الأول - ديسمبر - ١٨٤٧. وقد غربت شمس الرجلين المتصارعين (بيجو - والأمير عبد القادر) في وقت واحد. وكان لأولهما فخر الدنيا، وكان لثانيهما خلود الدنيا والآخرة. وزال (تمثال بيجو) من الجزائر. وعاد جثمان الأمير إلى أرض وطنه. أرض الآباء والأجداد.

«إن حروب الصليبيين لم تنته، ولا بد من أن نثأر لجيوشنا التي هزمها صلاح الدين في حطين».

بيجو.

الفصل الثاني

١- بيجو وموقعه من فن الحرب.
٢- استراتيجية الاستعمار.
٣- تجربة (بيجو) وموقعها في التاريخ.
٤- التعلم من التجربة التاريخية.

١-بيجو، وموقعه من فن الحرب.

عندما رجع (بيجو) إلى فرنسا، سنة ١٨٤٨، تم تعيينه قائداً لجيش الألب. غير أن قيادته لم تكن مديدة هذه المرة، فقد دهمه مرض الكوليرا في السنة التالية (١٨٤٩) ولم يمهله الموت، وترك لفن الحرب كتابين أولهما (تأملات وذكريات عسكرية) صدر سنة ١٨٤٥، وثانيهما (الحرب الأفريقية)(*) الذي سبق صدوره في سنة ١٨٣٩. وقد تضمنت هذه الكتابات خلاصة تجارب (بيجو) التي كان مسرحها الأساسي بلاد الجزائر، وكان مجالها الحيوي مركزاً على (القتال ضد الحروب الثورية) فلا غرابة في أن يكون تأثر (بيجو) محدوداً بأستاذه في فن الحرب (نابليون بونابرت). فسهول الجزائر، وجبالها، وطبيعتها، هي غير ما عرفته الجيوش الفرنسية- باستثناء الحملة الفاشلة على مصر وسوريا. وكذلك، فالقوات التي جابهتها القوات الفرنسية في الجزائر هي غير تلك التي جابهتها على مسرح

(*) - REFLECTION ET SOUVENIRS MILITAIRES (1845).
- LA GUERRE D'AFRIQUE (1839).

العمليات الأوروبي، ولذلك فقد كانت خلاصة التجربة التاريخية التي خرج بها (بيجو) مغايرة تماماً لتلك الدروس التي انتهت إليها (التجربة النابوليونية). غير أن تجربة (بيجو) غير محرومة في كل الأحوال من الأهمية أو الفائدة. فقد وجه (بيجو) نقداً لنظرية (الكتائب الكبيرة) وأكد أن النصر ليس ملازماً بصورة حتمية للتفوق العددي للقوات. وفي أفريقيا قبل أي مكان آخر: «**يجب على المرء ألا يثق بالتقديرات الحسابية والمؤثرات المادية، عند تطبيق هذه التقديرات والمؤثرات في أصول المعركة**». وقد وجه (بيجو) نقداً لحالة الجيش الفرنسي عندما وقف أمام الملك لويس فيليب. وقال له: «**إن الكثيرين من الضباط غير ذوي الكفاءة قد وصلوا إلى أعلى رتب الجيش. وأن هذا الموقف المؤسف لم ينته تماماً، وفي الوقت ذاته، فإن ضباط الصف، الذين هم القوة الحقيقية للجيش، في حاجة إلى المزيد من التعليم، على حين أن الضباط أنفسهم كانوا بدورهم في حاجة إلى زيادة معنوياتهم العسكرية... بل وتسودهم- روح الرأسمالية- التي تجعلهم يحرصون كثيراً على حياتهم، ويخشون فقد مراكزهم السامية التي يشغلونها**».

لقد تأثر (بيجو) دونما ريب بالحالة المعنوية للمجاهدين الجزائريين حيث كانت قلة، مؤمنة تحقق انتصارات رائعة ومثيرة على الارتال الضخمة للقوات الفرنسية، وكان ميزان القوى العددي، باستمرار، في غير مصلحة المجاهدين، وعلى الرغم من ذلك، فإنهم لم يستسلموا لأعدائهم، ولم يلقوا طواعية بأسلحتهم. وقد استمر الصراع في مثل هذه الظروف غير المتكافئة طوال سبعة عشر عاماً، هو عمر تجربة بيجو في حرب الجزائر. ولا ريب أن هذه الظاهرة المثيرة كافية لجذب أي إنسان يعيش هذه التجربة. ولكن هل كان باستطاعة (بيجو) أو سواه، نقل هذه الروح إلى القطاعات الفرنسية؟ لقد كان من المحال بلوغ مثل هذا الهدف الطموح. ذلك أن هذه الروح المعنوية مرتبطة أساساً بمفهوم (فرض الجهاد) وشرف (الشهادة) ولما كان من الصعب نقل هذه الروح، فقد وضع (بيجو) مخططه المتكامل لتهديم

الروح المعنوية لدى المجاهدين مع زيادة القدرة المادية للقوات الفرنسية. وهكذا عاد (بيجو) ليقع في التناقض ذاته، إذ ان حجم القوات في فترة قيادته ارتفع من ثلاثين ألفاً إلى ستين ألفاً ثم إلى ثمانين ألفاً ثم إلى مائة ألف ونيف. وإن تجزئة هذه القوات إلى أرتال كثيرة (فيالق مستقلة) تعمل في إطار محكم من تنسيق التعاون، لا يعني أبداً إهمال التفوق المادي في القوى والوسائط. ثم ألم يتبجح (بيجو) ذاته في (زيادة قوة جيوشه) عند كل مرة كانت تتوافر له هذه الزيادة؟ إن كل ما في الأمر هو أن (بيجو) قد استخدم هذه القوات بكفاءة عالية من حيث تجزئتها إلى أرتال (أو فيالق) حتى يتيح لهذه القوات فرصة التحرك بمرونة أكبر وبسرعة أكثر، بما يتوافق مع طبيعة مسرح العمليات، وبما يتكيف أيضاً مع طبيعة الخصم، ومع قدرة (التأمين الإداري) للقوات مما هو متوافر على مسرج العمليات ذاته. والشواهد على ذلك كثيرة- وفقاً لما سبق عرضه- ويكفي هنا الإشارة إلى ما ذكره المؤرخون: «**من أن زعيم جبال زواوه كان متفوقاً على جيوش الماريشال بيجو. وأن إخضاعه كان بسبب الإمدادت التي كانت لا تنقطع عن بيجو. ولقد رأى- بيجو- أن يعاقب هذه القبائل على تعنتها وتمسكها بحريتها، فأحرق أربعين قرية، من دون أن يراعي النساء والأولاد والشيوخ، وحتى الحيوانات. وإذ يفعل بيجو ذلك، فإنه إنما يرسم الطريق الذي يجب على قادته أن يسلكوه. ولم يسع زعيم جبال زواوه- ابن زاموم- إلا أن يرتفع بما بقي من جنوده إلى الجبل**»(*).

لقد عرف (بيجو) أن الحرب التي يقودها هي حرب استعمارية، بدلالة قوله إلى أحد خاصته: «إن الأمير قد انتصر عليه، في المرة الأولى، وأنه سيحاول أن ينتقم منه، فإن نجح فذاك، وإن فشل، فسينتحر لأنه لا يسمح لنفسه أن يعيش بعد أن تسقط سمعته كرجل عسكري، وتغلب جنود فرنسا في أرض الجزائر التي يعلق عليها الشعب الفرنسي كل

(*) تاريخ الجزائر- مجاهد مسعود- ١/ ٣٥٠.

الآمال». وتظهر هذه المقولة في الواقع أكثر من حقيقة، فهي تظهر أن عملية الاستعمار المرتبطة بالثورة الصناعية قد أعطيت زخماً معنوياً لدى جماهير الشعب الفرنسي باعتبارها مطلباً أساسياً للتطور- وللحصول على الثورة، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية، فقد ربط النجاح أو الفشل بعامل شخصي. وإذاً فقد بات (بيجو) نموذجاً لرجل الاستعمار. وفي مثل هذه العلاقة، ورغم كل المظاهر التي أعطيت لعملية (فتح الجزائر) فإنه لم يكن للصراع الديني إلا دور ثانوي. وإن دفاع المجاهدين الجزائريين عن ديارهم وأوطانهم هو دفاع عن الوجود ارتبط بالدفاع عن قواعد الصمود التي يمثلها الدين الإسلامي. ولهذا عمل بيجو على إحياء فكرة (الحروب الصليبية) لهدفين: أولهما إضعاف قواعد الصمود العربية الإسلامية وثانيهما إعطاء زخم معنوي لجنوده، وهذا هو بدقة ما عبر عنه بقوله: «**إن حروب الصليبيين لم تنته، ولا بد أن نثأر لجيوشنا التي هزمها صلاح الدين في حطين**»(*) فهل استطاع (بيجو) بإعلانه للحرب الصليبية تأمين رصيد معنوي لقواته؟ في الواقع نعم! إذ ان تفجيره لعامل الحقد والكراهية هو الذي يفسر ما قام به الضباط الفرنسيون وجنودهم من أعمال إجرامية، لا إنسانية، من إحراق وتقتيل وإبادة بصورة شاذة عن كل الحروب التي عرفتها أوروبا قبل الثورة الفرنسية. وإن ممارسة هذه الأعمال في الحقيقة لا يدل أبداً على ارتفاع بالروح المعنوية للمقاتل الفرنسي، وفقاً للمقاييس والمعايير المتعارف عليها- بقدر ما يدل على انحطاط بالقيم المعنوية (أو الفضائل الحربية) للمقاتل. فإبادة قبيلة التجأت إلى الكهوف- بالإحراق والخنق- ليس برهاناً على الشجاعة المعنوية أو المادية للجندي الذي حمل السلاح في مجابهة إناس عزل. وعلى كل حال، فإنه لم يكن باستطاعة (بيجو) أن يفعل غير ذلك باعتباره رجلاً من رجال الاستعمار. ذلك أن عملية الاستعمار في حد ذاتها هي عملية قذرة، مجردة من القيم

(*) المرجع السابق ٣٥٨/١

والفضائل، قائمة على السلب والنهب، أعادت الإنسان إلى طبيعته البدائية الهمجية، طبيعة القبائل المتصارعة على الكلأ والماء والماشية، مع تطوير لعملية الغزو والنهب بما يتوافق مع (طبيعة العصر الصناعي). ومن غير الطبيعي والحالة هذه، أن يتحلى جنود الغزو بالفضائل المتعارف عليها- حتى في عصر الغزو الاستعماري- مثل: الشجاعة، والانضباط، وروح الفروسية، وتقنين العنف في الحرب.

هنا لا بد من القول، إن هذا التدهور في (فن الحرب) وفي (فضائل الحرب) قد ظهر مرافقاً للثورة الفرنسية التي اكتوى (بيجو) ذاته بنيرانها. فمذابح (الفاندية)(*) قد أعطت البرهان الواضح على ما يفعله (الحقد الأسود) عندما يتم تفجيره. وقد عاش (بيجو) ذكريات هذه الفترة الحالكة بكل أبعادها. ولم يعد غريباً عليه أن يعيد هذه التجربة ضد شعب لا تربطه به أية رابطة، ولا تصله به أية صلة، إلا صلة رجل الاستعمار بالبلد الخاضع كرهاً لقهر الاستعمار. ويصبح من طبيعة الأشياء أن يقف قادة جيش (بيجو) وجنوده صفاً واحداً وعلى مستوى واحد من قضية النهب، والسلب، وبيع حلي النساء في (سوق عزون) في الجزائر- لبيع الأقراط والأساور مع الآذان ومعاصم الأيدي الغارقة في الدماء. ثم ألم يعترف (بيجو) ذاته بممارسته (للنهب غير المشروع) و(الرشوة)؟ فهل من غرابة أن ينحدر بقية الضباط وجنودهم إلى هذا المستوى ذاته؟ وعلى هذا، فإن ما زعمه (بيجو) من نقد لانحدار مستوى الجيش الفرنسي- ضباطاً وصف ضباط وجنوداً- إنما هو زعم أقرب إلى الاعتراف بواقع أسهم (بيجو) ذاته بصنعه وتطويره. فـإذا كانت الثورة الفرنسية قد انحدرت بالإنسان

(*) حروب الفاندية: (GUERRE DE VENDEE) هي الحروب التي شنتها قوى الثورة الفرنسية ضد قوى الثورة المضادة التي اضطلع بها الفلاحون في بريتانيا وبواتييه وآنجو كرد فعل على القوانين المدنية التي أصدرتها الثورة ضد الكنيسة. وقد حققت الثورة المضادة نجاحات أولية في (فونتينوي) و(صومور). غير أن كليبر ومارسو تمكنا من القضاء على هذه الثورة (١٧٩٥- ١٧٩٦) وجاء بعد ذلك (هوش) فقضى على الثورة بصورة نهائية بفضل اعمال القمع الوحشية، وإبادة السكان إبادة تامة.

الفرنسي إلى مستوى أخلاق القبيلة البدائية، فإن (بيجو) قد عمل على إعطاء هذه الأخلاق صفتها الهمجية البربرية.

٢ـاستراتيجية الاستعمار.

يمكن من خلال العرض السابق، ومن خلال المقولات المطروحة في مجال (فن الحرب) الوصول إلى نتيجة محددة، وواضحة، وهي أن تجربة (بيجو) في مجال (فن الحرب) تعتبر تجربة فردة في خصوصيتها (أو خاصتهاـ سيان) بحيث يصعب تعميمها. غير أن هذه التجربة على خاصتها، تصلح للتعميم في حالة واحدة فقط، هي حالة (الحروب الاستعمارية). فما هي السمات المميزة لهذه الحروب، على ضوء تجربة (بيجو) في حرب الجزائر؟.

أولاًـ الاستيلاء على منطقة ضيقة على أرض الساحل، تكون قاعدة للتوسع ومجالاً للاحتكاك.

ثانياًـ عزل البلد الذي يتم إخضاعه للاستعمار، عن جواره، وتمزيق روابطه السياسية.

ثالثاًـ تقسيم البلد إلى مناطق يتم إخضاعها بالتتالي، والإفادة من التناقضات المحلية.

رابعاًـإعاقة المقاومات عن تنسيق التعاون فيما بينها، وحرمانها من كل دعم مادي ومعنوي.

خامساًـ الإفادة من التفوق المادي لفرض نوع من الهيمنة النفسية (تفوق الرجل الأبيض).

سادساًـ تدمير قواعد الصمود المعنوي للشعب الذي يتم إخضاعه بحرب فكرية متكاملة.

سابعاًـ استخدام الإرهاب والإفقار والتجويع، لتجريد المقاومة من أسلحتها وقدراتها.

ثامناًـ إنشاء شبكات من المواطنين، واستخدام كافة الوسائل، للحصول على معلومات دقيقة قدر المستطاع عن شرائح المجتمع وعاداته وتقاليده وروابطه وإمكاناته.

تاسعاً- تشكيل وحدات من أبناء البلاد لدعم القوى الاستعمارية، ومساعدتها في أعمالها.
عاشراً- إصدار قوانين خاصة بإدارة البلاد الخاضعة للاستعمار، يتم تطبيقها على مراحل للانتقال بالسكان تدريجياً من قواعد الصمود إلى قواعد الاستسلام.

لقد نزلت القوات الفرنسية على أرض الجزائر في الخامس من -تزيران ١٨٣٠، ومضت أكثر من سبع سنوات قبل أن تتمكن هذه القوات من تأمين هيمنتها حتى على المدن الساحلية. وكانت الطرق التي تربط بين هذه المدن مهددة باستمرار، ولذلك فقد كانت الحاميات المقيمة في هذه المدن مرتبطة بقنوات طويلة تمتد إلى ما وراء البحار لتأمين إمدادها لا بموارد الحرب، وإنما أيضاً بالمواد التموينية. وكان هذا الوضع يجعل (نفقات الاستعمار) باهظة جداً، فلا غرابة أن يتصدى عدد كبير ممن لا تربطهم بالمراكز الاقتصادية- الاستعمارية- روابط قوية، للمطالبة بإعادة النظر في (فائدة الاستعمار) و(أهميته)، غيرأن الاستعماريين كانوا ينتصرون باستمرار على معارضيهم بتجاوز متطلبات الحاضر إلى متطلبات المستقبل وكانت الانتصارات التي يحققها هؤلاء الاستعماريون وأجهزتهم في البلاد التي يتم إخضاعها وما يحققونه من مغانم، تدعم مراكز الاستعماريين في بلادهم، وفي البلاد المستهدفة من عمليات الغزو. وكانت الأجهزة الاستعمارية خلال هذه المرحلة تعمل بفاعلية ونشاط- وإخلاص لقضيتها على الأقل- لدعم قواعدها في المدن المحتلة وزيادة صلابتها، وتأمين الاحتكاك المستمر مع أبناء البلاد الأصليين، والانتقال بعد ذلك من هذه القواعد إلى قواعد متقدمة في داخل البلاد- الزحف نحو العمق الاستراتيجي للبلاد بحجة حوافز أمنية- وذلك إلى أن يتم فتح البلاد وإخضاعها تماماً للاستعمار. وقد تطلب فتح الجزائر، والوصول إلى حدود الصحراء فترة سبع عشرة سنة (١٨٣٠-١٨٤٧). ولعل الظاهرة المثيرة هي السرعة الكبرى في تطور عملية التوسع خلال السنوات الأخيرة (١٨٤٣- ١٨٤٧) بحيث ان مساحة

المناطق التي أمكن السيطرة عليها تزيد أضعافاً كثيرة على حجم المساحة الجغرافية التي تم احتلالها خلال المرحلة الأولية. وهذا ما يؤكد أهمية بناء القواعد الصلبة على مناطق ساحلية محدودة قبل الوصول إلى العمق الاستراتيجي الذي يضعه الاستعمار هدفاً له.

ويعتمد البلد - كل بلد - في دفاعه، على مجموعة من الروابط التقليدية، وفي حالة الجزائر، فقد كان البلد يعتمد على جارتيه (تونس في المشرق والمغرب على الغرب) بحكم الروابط القائمة بين أفراد شعب واحد تحكمه العلاقات الدينية والاجتماعية والاقتصادية الواحدة. وكان للجزائر روابطها أيضاً مع (دار الخلافة العثمانية) وعلى هذا فقد بدأت فرنسا بتمزيق هذه الروابط (عن طريق تدمير الأسطول العثماني في نافاران ١٨٢٧، وعن طريق عزل مصر محمد علي باشا) وهكذا بات المغرب العربي - الإسلامي معزولاً - براً وبحراً - عن مشرق العالم العربي - الإسلامي. وجاء (بيجو) فأكمل عزلة الجزائر - مسرح العمليات عن جارتيه المباشرتين (تونس والمغرب) بتوجيه تهديدات مباشرة سياسية وعسكرية. فأمكن له بذلك حرمان المجاهدين الجزائريين من كل دعم خارجي. وليس تنصيب (بيجو) بلقب (دوق ايسلي) إلا دلالة على أهمية عزل المغرب عن الجزائر، وفي الواقع، فقد أحرز (بيجو) مجموعة من الانتصارات على المقاومة، وخاض معارك قاسية، وتولى إدارة الحرب في الجزائر طوال أكثر من عشرة أعوام. وعلى الرغم من ذلك، فإنه لم يمنح له لقب (الدوق) إلا نتيجة انتصاره على المغرب، وهو الانتصار الذي لم يأخذ أبعاده إلا بنتيجة القصف البحري لمدن (طنجة وموجدور). وكذلك، فقد قسم مسرح عمليات الجزائر ذاته الى مناطق، مع إعطاء هذه المناطق أفضليات مرحلية. ولقد عجزت فرنسا وقواتها عن اخماد نار المقاومة عندما كانت تنطلق من قلعتي (قسنطينة - بقيادة الحاج أحمد باي) و(معسكر - بقيادة الأمير عبد القادر). ونظراً لعناد باي قسنطينة فقد أسرع (بيجو) (معاهدة تافنه) مع الأمير عبد القادر، الأمر الذي سمح للقوات الفرنسية

بتركيز كل جهدها على مشرق البلاد، حتى إذا ما تم الاستيلاء على قسنطينة، نقض (بيجو) ذاته المعاهدة، وحول مركز ثقل الجهد الرئيسي ضد الأمير عبد القادر. وعندما تعاظمت المقاومة في (وادي شلف) و(جبال جرجره) بقيادة (أبو معزة) و(ابن سالم) حرص (بيجو) على شن (حرب تشتيتية) بقوة (١٨) فيلقاً تعمل في وقت واحد ـ وفي الليل والنهار، لحرمان قوات المقاومة من تنسيق التعاون فيما بينها. وكان من الطبيعي ـ ومن المتوقع ـ ألا تستطيع هذه المقاومات المنعزلة الصمود لثقل هجمات القوات الاستعمارية المركزة، والمتفوقة تفوقاً ساحقاً بالقوى والوسائط، فتفتتت نويات المقاومة، واحدة بعد الأخرى، حتى إذا لم يبق في النهاية إلا قيادة واحدة ـ هي قيادة الأمير عبد القادر ـ وجدت ذاتها معزولة خارجياً، ومطوقة داخلياً، ومحرومة من كل إمكانات الدعم المادي ـ وحتى المعنوي ـ ولم يبق أمامها إلا الخضوع والاستسلام.

لقد ظهر من خلال العرض السابق أن (بيجو) قد وضع مخططه للعمليات على أساس إحراز التفوق الساحق بالقوى والوسائط في المنطقة التي يتم العمل فيها، بحيث تتحرك الأرتال على محاور مختلفة، ثم تجتمع عند صدور إشارة واحدة (طلقة مدفع) لتتفرق بعدها، كما لو كانت سيلاً متدفقاً، يتجمع عندما يصطدم بسد من السدود، حتى إذا ما أمكن له إزالة السد عاد للإنسياب عبر المجاري والأودية المتوافرة، وقد حققت هذه الاستراتيجية نجاحات كبيرة، وأنقذت القوات الفرنسية في مرات كثيرة من المآزق التي كانت تجابهها عند اصطدامها بقوات المجاهدين (العربية). وهكذا ومقابل تشتيت القوات العربية، فقد كانت القوات الفرنسية تعمل بصورة مركزة، مما كان يضمن لها التفوق. وكانت السلطات الفرنسية تستخدم هذا التفوق لا من أجل إحراز النصر المادي فحسب، بل لدعم النفوذ المعنوي (الهيبة) وهو أمر ضروري وملازم للاستعمار من أجل إشعار السكان (بتفوق الرجل الأبيض) المتحضر والذي يعتمد على العقلانية. وكأن الطرف المقابل كان محروماً من هذه القدرة العقلانية، ولو كان هذا

الرجل الأبيض على صواب فيما زعمه، لما استمرت المقاومة رغم كل الظروف (الدولية المضادة) طوال عصر الاستعمار. على كل حال، فإن الهجمة الاستعمارية التي قادها (بيجو) لم تكن هجمة عسكرية فحسب، بل كانت مصحوبة بهجمة فكرية، اشترك فيها رجال الدولة (السياسيين) ورجال الكنيسة (الدين). وكان الهدف من هذه الهجمة هي تدمير قواعد الصمود، والتي تشكل الفضائل الإسلامية- العربية أساساً لها- وتكوين قناعات جديدة تحل محل القناعات القديمة، وكان باستطاعة الاستعمار وأجهزته الحاق الصفات المنفرة بالقناعات القديمة «مثل القناعات البالية والقناعات التي تجاوزها الزمن والقناعات البدائية إلخ...» مع إعطاء القناعات الجديدة ظواهر براقة «مثل التقدمية والحضارية والمتمدنة والإنسانية إلخ.». ولم تكن عملية إحلال قناعات بقناعات مغايرة من الأمور التي يقبلها الإنسان العربي- المسلم (خاصة). ولهذا فقد تم العمل بصورة تدرجية ومرحلية، تركز الجهد فيها على تدمير القيادات الأصلية المتوارثة بقيادات عملية مصطنعة، يتم استبدالها بصورة مستمرة- كلما اهترأت أو فشلت في تحقيق الهدف المرحلي المحدد لها- وهكذا سارت عملية الهدم والبناء بصورة متكاملة، وبوسائل مختلفة وطرائق متباينة. وإذا كان (بيجو) قد اعتبر الهجمة الاستعمارية التي قادها بمثابة (تطوير للحرب الصليبية) و(استمراراً لها) فليس ذلك إلا ليعطي هذه الحرب مضموناً فكرياً، أيديولوجياً، يسهم في اضعاف قواعد الصمود لدى الشعب العربي المسلم في الجزائر. ويصبح من طبيعة الأشياء أن يلجأ (بيجو) ومدرسته الاستعمارية إلى تركيز الجهد لتعطيل فرائض الدين (مثل تحويل المساجد إلى حدائق عامة ومستشفيات ومراكز حكومية وثكنات إلخ...) وكذلك السعي لإصدار فتاوى تمنع المسلمين من الإلتزام بفريضة الجهاد. وكذلك خلق العوائق أمام (الحج إلى الأماكن المقدسة) ونهاية بالتهجم على الدين ذاته. كل ذلك مع فتح المجال الواسع أمام (أدعياء الدين) لإدخال انحرافات ثقيلة تحوّل الدين الإسلامي عن دوره السياسي والاجتماعي

والقانوني (القضائي) إلخ...

وكان في جملة الوسائل التي استخدمها (بيجو) ووضع حجر الأساس لها، من أجل اقناع أبناء الجزائر (بفضائل القيم الجديدة) أعمال الإبادة والتدمير والتجويع والافقار والمصادرة للممتلكات والأراضي والثروات، وكان من شأن (الغرامات الثقيلة) تجريد المقاومة من أسلحتها، ولعل أبرز نموذج يبرز هذه الحقيقة موقف (أولاد سيدي الشيخ البيوض) عندما قصدهم الأمير عبد القادر في المرحلة الأخيرة من جهاده على أرض الجزائر. وكان أولاد سيدي الشيخ ينتشرون على أراضي المنطقة الممتدة إلى الجنوب الغربي الجزائري، وقد استقبلوا وصول الأمير عبد القادر بحماسة، ورحبوا به: «**وأكدوا له تعاطفهم مع محنته، غير أنهم رجوه وتضرعوا إليه ألا يقيم عندهم ويعرضهم للحرب والبلاء مع العدو. فإن الفرنسيين لا يخفى عنادهم وظلمهم، ولولا أنهم أشد الخلق عتواً وظلمًا واعتداء ما تسلطوا علينا**» فلما سمع الأمير كلامهم، رّق لهم، وأشفق عليهم ورحل عنهم معزباً. ومقابل ذلك، كان (بيجو) يغدق الأموال على المتعاونين معه، فكانت سياسته نموذجاً لما هو موصوف باسم (العصا والجزرة) وهذا ما أبرزه الثائر (أبو معزة) شقيق (أبو معزة الأول) عندما تم اعتقاله واستجوابه، فقال للمحققين معه من الفرنسيين: «**لا يوجد سوى إله واحد، وحياتي بين يديه، ولذلك فسأتحدث إليكم بصراحة. إنكم تسمعون كل يوم مسلمين يؤكدون لكم أنهم يحبونكم، ويعدون بأن يخدموكم بإخلاص. لا تصدقوهم لأنهم يكذبون عليكم، إما لخوفهم منكم، وإما لمآرب يريدون قضاءها. ولكنه كلما قام زعيم يهيب بهم للجهاد، ويعتقدون أنه قادر على الحاق الهزيمة بكم، سيسيرون في أثره، ولو قادهم للهجوم على مدينة الجزائر ذاتها**»(*). وهذا الموقف أيدته التقارير الرسمية الفرنسية، عند تعرضها لموقف القوات التي جندتها فرنسا

(*) المقاومة الجزائرية- اسماعيل العربي ص ٢٩٠ و٢٩٧.

لخدمتها مثل (قناصة أفريقية) و(الزواف)(*) حيث جاء في أحد هذه التقارير: «بأنه من أصل ١١٤٤ جزائرياً تم تطويعهم في قوات الزواف، لم يبق إلا ٣٦٣ جزائرياً سنة ١٨٤٧» (**). وعلى كل حال، فإن ما أحرزه (بيجو) من نجاح أو فشل في هذا المضمار، لا يعتبر مقياساً دقيقاً لما تم انجازه في حينه، إذ ان جهود (بيجو) لم تستهدف أصلاً احراز انتصارات مرحلية فحسب، وإنما استهدفت ترسيخ جذور الاستعمار خلال المرحلة الصعبة من بداية عصر الاستعمار. وعلى هذا فقد تم استثمار كافة الظروف - بما فيها ظروف الفشل ذاته - من أجل بناء مخططات جديدة ترسل ظلالها إلى أفق المستقبل. وهنا تظهر أهمية تلك الشبكات التي نظمها (بيجو) للجاسوسية وجمع المعلومات عن كل ما يتعلق بالشرائح الاجتماعية للشعب الجزائري وعاداته وتقاليده. وصحيح أن الاستخبارات الفرنسية وجواسيسها قد قدموا ما يكفي من المعلومات، من أجل تأمين عملية الغزو، غير أن المعلومات المطلوبة لتحقيق أهداف الاستعمار هي معلومات أكثر دقة، وأكثر شمولاً، إذ انها تعني بالدرجة الأولى الحصول على معرفة بطبيعة الأرض (جغرافية البلاد) وما تتضمنه من إمكانات وموارد وتسهيلات، وكذلك القدرات الاقتصادية (الزراعية والتجارية) بالاضافة إلى إمكانات السكان ومواردهم. وكثيراً ما كانت تتردد في تلك

(*) الزواف: (ZOUAVES) قطعات تضم المجندين -المتطوعين- من الجزائريين، غير أن ضباطها وقادتها من الفرنسيين، وقد شرع الفرنسيون في تنظيمها بعد فترة قصيرة من احتلالهم للجزائر. وكان الزواف كثيراً ما يتركون قطعاتهم وينضمون إلى الثورة، غير أن القضاء على الثورات (سنة ١٨٤٧) ساعد على تطوير هذه القوات التي اشتركت بصورة إيجابية في حرب القرم (١٨٥٤) وقد وصفها ماك كليلان بقوله: «تتميز قوات الزواف بأنها أشد القوات اندفاعاً وتهوراً، وأكثرها ثقة بنفسها واعتماداً على امكاناتها وقدراتها، ولهذا فهي نموذجاً أعلى لقوات المشاة، وهي من أفضل ما شكلته اوروبا من قوات. وجندي الزواف هو المثال الرائع للجندي، عندما يقف في مركزه المتقدم بثيابه الجميلة، وبما تضمه هذه الثياب من شجاعة نادرة، واقدام لا حدود له» المرجع -انكليزي- UNIFORMS AND WEAPONS OF THE CRIMEAN WAR (B. T. BATSFORD— LONDON — 1977 . P. 56)

(**) تاريخ الجزائر الحديث- ابو القاسم سعد الله. ص ١١٤.

الفترة عبارة (التعايش بين شعبين مختلفين). وكان لا بد لهذا التعايش من حدود كافية تقوم على المعرفة (لما هو ممكن). غير أن هذا (الممكن) كان مستحيلاً بسبب، الأهداف الاستعمارية ذاتها- والتي تعني أول ماتعنيه نهب الأرض والسكان لتأمين متطلبات (الاستيطان الاستعماري). ومن هنا بدأ فرض القوانين الاستعمارية القائمة على (التمييز العنصري)، وفرز الشعب إلى فئاتٍ متباينة، يتم منح بعضها امتيازات على حساب الفئات الأخرى (مثل منح أبناء المدن امتيازات على حساب أبناء الريف. أو إعطاء الكراغلة امتيازات على حساب العرب إلخ. . .) وهكذا وضع (بيجو) حجر الأساس لقلب المجتمع رأساً على عقب، وإحلال التفرقة والخصومة - وحتى العداء - محل الإنسجام والتكامل والتعاون مما كان قائماً قبل الاستعمار الفرنسي.

وبعد، فإن استقراء ملامح الأساليب والطرائق التي طبقها (بيجو) في مجال (فن الحرب)، هي من الأساليب المعروفة عند العمل على مسارح عمليات جديدة تتطلب من القائد التوفيق (بين الهدف المطلوب) و(الإمكانات المتاحة أو المتوافرة). وإقراراً بالواقع، فقد نجح (بيجو) فيما فشل أقرانه عن تطبيقه في هذا المجال. ولقد تميزت رؤية (بيجو) للأمور بالوضوح التام. وقد كان سبب رؤيته الواضحة، هو خبراته السياسية المنافسة لخبراته العسكرية، مما كان يسمح له بالإطلاع على التيارات السياسية التي تحكم العالم، والاتجاهات السياسية والاقتصادية التي تتحكم بفرنسا. وهكذا فإن عزل الجزائر عن تونس والمغرب، وعن (دار الخلافة العثمانية) لم يكن من عمل (بيجو) وحده، ولو أنه حقق نجاحاً جزئياً في تنفيذ هذا العمل (على جبهة المغرب). ويجب أن يضاف إلى ذلك أيضاً أن من عوامل نجاح (بيجو) تلك الروابط والعلاقات التي كانت تربطه بالقصر الملكي ومجلس الوزراء ومجلس النواب (البرلمان - بصفته عضواً من أعضائه) فكان له من ذلك كله رصيداً معنوياً (هيبة) يساعده على تغطية فشله، ومن هنا فإن (حرية العمل المطلقة) قد أسهمت يقيناً بصنع

أسطورة (بيجو) المتفوق على أقرانه والمنتصر على أعدائه، والقاهر للظروف المحيطة به. وعلى كل حال، فقد كانت عملية (الاستعمار) في حاجة (للهالة أو الهيبة) كما كانت في حاجة (للأسطورة) وكان (بيجو) صاحب هذه الهالة، وبطل تلك الأسطورة. وتبقى تجربته في (فن الحرب) شديدة الالتصاق بالحروب الاستعمارية عامة، وبالحروب الجزائرية منها بصورة خاصة، مما يجعلها ضعيفة العطاء لمعطيات (فن الحرب) وتطوره.

٣ـ تجربة (بيجو) وموقعها في التاريخ

كانت الجزائر أول بلد عربي ـ اسلامي استعمرته فرنسا، وكانت عملية (الاستعمار) في حد ذاتها غير واضحة المعالم أو محددة الأبعاد، حتى بالنسبة للفرنسيين ذاتهم، بدلالة الجدل الذي بقي قائمًا ومستمراً حول جدوى (استعمار الجزائر) إلى أن جاء (بيجو) فأرسى قواعد الاستعمار في الجزائر، وحدد له اهدافه وطرائقه واساليبه. وصحيح أن فرنسا كانت قد حصلت على بعض المستعمرات في الهند الغربية (أمريكا الجنوبية) وبعض المناطق في (كندا) و(أمريكا الشمالية) إلاّ أن فقد هذه المستعمرات في القرن السابع عشر (وأثناء الحروب النابوليونية) قد برهن لفرنسا على عقم طرائقها الاستعمارية. ولذلك فقد جاء استعمار فرنسا للجزائر بداية لتوغل فرنسا في افريقية الاسلامية خاصة، وتطوير ذلك إلى مشرق العالم العربي ـ الاسلامي (الانتداب) وإلى ما وراء ذلك في أعماق آسيا (الهند الصينية ـ أو فييتنام). ومن هنا فقد كانت تجربة (بيجو) التي أعطتها فرنسا أهمية خاصة، (وأطلقت اسم (بيجو) حتى أصبح علمًا على كل لسان) هي تجربة تمثل نموذجاً متطوراً يمثل المدرسة الاستعمارية الفرنسية والتي بات طموح معظم قادة فرنسا موجهاً لمحاكاتها وتقليدها. **ولعله ليس من المبالغة في شيء القول بأن (مدرسة بيجو الاستعمارية) قد تركت أثراً عميقاً أرسل ظلاله على امتداد قرن من الزمن ـ هو عمر الاستعمار ـ.** وقد يكون ليس من الغريب أن يردد (الجنرال غورو) يوم وقف أمام قبر صلاح الدين (سنة ١٩٢٠) ذات العبارة التي رددها (بيجو) من قبل: «لقد عدنا ـ ولا

زالت الحرب الصليبية مستمرة» وكذلك ما ردده الجنرال اللنبي يوم اقتحم القدس في الفترة ذاتها. بل إن الأمر يتزايد وضوحاً عند مقارنة اساليب الفرنسيين وطرائقهم في مجابهة شعب الجزائر (سنة ١٩٤٥) مع تلك الاساليب والطرائق التي وضع (بيجو) أساساً لها قبل قرن من عمرالزمن، (فحرائق الظهرة) ليست إلا صورة أولية لمذبحة (سطيف سنة ١٩٤٥) وأساليب التعذيب والتشويه التي عاشتها الجزائر خلال حرب التحرير (١٩٥٤- ١٩٦١) لم تكن إلا تطويراً لأعمال (الارتال الجهنمية) التي نظمها (بيجو) وقاد بعض عملياتها، وحدد لها اسس عملها. وكذلك الأمر بالنسبة لمحاولة عزل الجزائر عن اشقائها في (المغرب) و(تونس) وعن بقية بلدان العالم العربي- الإسلامي. ولم يكن اسلوب تقسيم الجزائر إلى مناطق- أو مربعات- (كادرياج) لتهدئة الثورة في مشاريع قادة حرب الجزائر خلال مرحلة ثورة الاستقلال إلا تطويراً لعمليات (بيجو) في تركيز الجهد الحربي على مناطق يتم اخماد الثورة فيها، للانتقال بعد ذلك إلى مناطق اخرى. وهكذا، فلقد كان النجاح الذي حققه (بيجو) حافزاً أساسياً لتحقيق المزيد من النجاحات، وذلك بصرف النظر عن الوسائل المستخدمة لبلوغ النجاح أو تحقيق الهدف. ومن المحتمل هنا القاء كافة المساوىء التي اشتهرت بها المدرسة الاستعمارية على عاتق (بيجو) غير أن كاهل (بيجو) أضعف من أن يحتمل تلك المساوىء (أو الجرائم) كلها. ويحمل (بيجو) نصيبه منها باعتباره ممثلاً للنظام الاستعماري ورائداً من رواده. أما الجرائم الحقيقية فتحملها عملية الاستعمار ذاتها، والتي لم يكن باستطاعتها إلا أن تكون (قذرة) و(اجرامية) و(مجردة من الفضائل) فكان (بيجو) ممثلاً لها ونموذجاً عنها.

لقد عرفت المدارس الاستعمارية في العالم نماذج كثيرة مشابهة في (تكوينها) و(نهجها) و(أساليبها) و(طرائقها) لما كان عليه (بيجو). وعلى سبيل المثال فاسم (البريطاني كتشنر) ينافس اسم (بيجو) في عالم الاستعمار، ويشابهه في اساليبه وطرائقه. و(غورو) و(اللنبي) وسواهما

نماذج أخرى كلها صنعتها ظروف الاستعمار، وأعطتها سماته المميزة، وطابعه الخاص. وعلى هذا، فليس (الماريشال بيجو- دوق ايسلي) عالماً مستقلاً بحد ذاته في رحاب التاريخ وإنما هو نموذج يمثل بصدق عصر الاستعمار. ولكنه لم يكن على كل حال نموذجاً سلبياً، وإنما كان نموذجاً فاعلاً ومؤثراً، إذ ان ما حققه من نجاح ترك بصمات قوية تجاوزت بأهميتها وبنتائجها عصر التجربة التاريخية التي عاشها (بيجو) وقام بدوره فيها. وقد أعطي (بيجو) في حياته (وبعد مماته) حجمًا يزيد كثيراً على حجم الدور الذي قام بممارسته- من قبل فرنسا بصورة خاصة ومن قبل الباحثين الفرنسيين على وجه التحديد- غير أن تحليل مقولات (بيجو) وأعماله يظهر العوامل الحقيقية الكامنة وراء هذا (التضخيم) المتعمد، والذي يهدف في جملة ما يهدف إليه تغطية السوءات الاستعمارية بأقنعة زائفة من البطولة تساعد على ذبح القيم الحقيقية والفضائل الأصيلة. وعلى كل حال، فقد اسقطت مسيرة الأحداث ذاتها هذه الأقنعة إذ ان انتصار فرنسا في (الجزائر)، ومحاولات الانظمة الملكية في فرنسا دعم وجودها بانتصارات خارجية، لم تلبث أن انهارت عندما اصطدمت بحروب حقيقية في اوروبا. ولعل القول بأن هزيمة فرنسا أمام بروسيا في حرب (١٨٧٠) إنما بدأت في الجزائر على وجه التحديد. ذلك أن اضفاء صفات البطولة، على العسكرية الفرنسية، وما رافق ذلك من انحلال مادي ومعنوي بنتيجة (حروب الاستعمار في الجزائر) قد خدر الجيش الفرنسي وقادته بأوهام لم تلبث أن بددتها حقائق الحرب ذاتها.

لقد بدأت الحروب الاستعمارية (بالجزائر) وانتهت (بالجزائر). وكانت مدرسة (بيجو هي المهيمنة على الفكر العسكري الفرنسي - ومن هنا تكتسب مدرسة (بيجو) أهميتها التاريخية، ذلك أن الالتزام بقواعد هذه المدرسة وطرائقها واساليبها قد شكل مدرسة فكرية مضادة كانت قاعدة للثورة، وتعلم المجاهدون الجزائريون بسرعة أكبر مما تعلمه القادة الفرنسيون. وهكذا، فعندما حاول قادة فرنسا تطبيق الأسس التقليدية القديمة (العزل-

تقسيم مسارح العمليات۔ الارهاب۔ الحرب النفسية والفكرية إلخ. . .) وجدوا في مواجهتهم قادة تاريخيين عرفوا كيف يلخصون كل تجارب الصراع مع المدرسة الفرنسية التي وضعها وحددها (بيجو). ليس ذلك فحسب، بل إن هؤلاء القادة التاريخيين قد تعلموا أيضاً من تجاربهم الذاتية، وعملوا على استخلاص الدروس من كافة الحروب الثورية التي تفجرت في وجه الاستعماريين على امتداد الفترة الزمنية التي خضعت فيها الجزائر لحكم فرنسا، مع أخذ عامل الزمن بعين الاعتبار، وهو ما تجاهلته المدرسة الإستعمارية، بحكم القيود التي تحكمها. فكان في ذلك انتصار القادة التاريخيين لثورة الجزائر، وهزيمة القادة التقليديين للعسكرية الإستعمارية.

٤ـ التعلم من التجربة التاريخية.

لقد مضى زمن الاستعمار المباشر، ومضى قادته إلى زوايا التاريخ المظلمة. وقد كانت تجربة (بيجو) على ما سبق قوله: محددة في إطارها الزمني (بعصر الاستعمار) ومحددة في مجالها المكاني (بالجزائر) وكان تأثير هذه المدرسة محدوداً في تطور فن الحرب، كما كان تأثيرها انحرافاً لتيار التاريخ. وبالمستطاع القول على هذا الأساس: وما هي الفائدة من دراسة تجربة تاريخية تجاوزها الزمن، وأسقطت أهميتها الأيام؟ ولماذا هذا التشبث العنيد في إثارة ذكريات أسقطتها محاولات النسيان؟.

لقد درجت هذه المجموعة (من مشاهير قادة العالم) على اختيار القادة، ممن كان لهم دورهم الحاسم لا في حياة شعوبهم فقط، وإنما في التأثير على تيار التاريخ أيضاً، وقد كان للماريشال (بيجو) من هذه الناحية دوره في التأثير على حياة شعبه وترك بصماته القوية على (تاريخ الاستعمار). ولقد تميز القادة الذين تم اختيارهم بالتأثير على (فن الحرب) وتطوره، وقد كان (لـدوق ايسلي) دوره في التأثير على فن الحرب، وعلى طرائق القتال ضد (الحروب الثورية) وأساليبها. وانطلاقاً من هذه الحقائق فلا يمكن اعتبار

(بيجو) غريباً على (مشاهير قادة العالم) أو دخيلاً عليها. وبالإضافة إلى ذلك، فإن اختيار (بيجو) ليكون في المجموعة يحقق هدفاً اضافياً، هو التعلم من (التجربة الذاتية) التي عاشها العالم العربي- الإسلامي، ولا يزال يعيشها بكل ابعادها وبكل ضراوتها ووحشيتها، وهذا مما يزيد من أهمية (التعلم من التجربة التاريخية).

نظرة عجلى واحدة إلى واقع العالم العربي- الإسلامي كافية لاقناع كل انسان باستمرار الحروب الاستعمارية، على الرغم من كل ما يقال عن زوال الاستعمار المباشر، وتحرر الشعوب، وتقدم الزمن، وفضائل العصر الحديث، ومشاريع التطوير، والاهتمام بمستقبل الإنسان إلخ. . .

لقد نهض الاستعمار على أساس (الحصول على المواد الأولية- الخام) و(البحث عن الاسواق) لتصدير الموارد الصناعية. وإن تأمل واجهات المحلات التجارية في العالم الموصوف (بالعالم الثالث) والذي يشكل العالم العربي- الإسلامي طليعة متقدمة له، كافية لتأكيد خطأ كل ما يقال عن (زوال الإستعمار التقليدي). ليس ذلك فحسب، بل إن زوال الاستعمار المباشر واستبداله باساليب الاستعمار غير المباشر قد فتح آفاقاً واسعة أمام تمزق فكري- ايديولوجي- وأمام صراعات غير محدودة باتت تستنزف من القدرات أضعاف ما كانت تستنزفه الحروب ضد قوى الاستعمار المباشر، وحتى بات حنين المخضرمين الذين عرفوا الاستعمار المباشر مشوباً بالرثاء على (الذات) التي قصرت عن مقارعة الاستعمار غير المباشر بمثل ما كانت تواجه الاستعمار المباشر. ولقد حلت التقنية محل الجيوش الاستعمارية، وحلت الصراعات والحروب المحدودة محل الصراعات ضد قوى الاستعمار، ووفر الاستعمار على نفسه الخسائر في الأرواح والوسائط القتالية، كما غنم ثمن الاسلحة التي يصدرها (لتحقيق التوازنات المزعومة) ودفعت الشعوب المتحررة من الاستعمار التقليدي الثمن مع الفائدة المركبة بنسبة عالية، وباتت ترزح تحت اعباء مشكلات جديدة تزيد في احجامها وأوزانها على كل ما عرفته من مشكلات أيام الاستعمار التقليدي.

لقد استطاع الاستعمار أن يطور طرائقه وأساليبه مع احتفاظه (بهدف الاستعمار) في حين عجزت الدول حديثة العهد بالاستقلال أن تطور طرائقها واساليبها في الصراع للمحافظة على هدف الاستقلال. وتضيف هذه الظاهرة قيمة خاصة على (تجربة بيجو) ذلك لأن هذه التجربة ترسم الملامح الاساسية بصورتها المبسطة ـالأوليةـ من غير تعقيد، ومن غير ملامح تزيينية ـتجميليةـ هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية، **فإن بعض مناطق العالم لا زالت تعيش تحت ظل الاستعمار الاستيطاني (مثل فلسطين) وتقدم تجربة (بيجو) في هذا المجال فائدة كبيرة، وهل بحث اسرائيل عن (عمق استراتيجي) أو الانتقال من (الساحل نحو الداخل) للوصول إلى ما هو مزعوم عن حدود (اسرائيل الكبرى) إلا صورة عن توغل الارتال الجهنمية إلى جوف الصحراء الجزائرية؟. وهل عزل (مصر) عن العالم العربي إلا صورة عن عزل المغرب عن الجزائر بعد معركة ايسلي؟ وهل هدف المعاهدة المصريةـ الاسرائيلية مغايراً للهدف من عقد معاهدة تافنه؟.** وإذن! وحتى (لا ننسى). وحتى ترتسم صور الاحداث بشكل أوضح أمام (أنظارنا) قد يكون من الضروري العودة إلى التجربة الذاتية في محاولة (للتعلم). وهنا أيضاً، فإنه من المحتمل القول: وما هي الفائدة من التعلم، ومن المعرفة، إذا كانت قوة القمع، وحرب الفكر أقوى من كل قدرة على الاحتمال؟.

لقد برهنت التجربة التاريخية ذاتها، أن التعلم والمعرفة، هي أساس كل تطور يمكن له مجابهة التحديات المتعاظمة. وإذا كان الاستعمار المباشر يمثل انحرافاً لتيار التاريخ، عمل هذا التيار ذاته على تصحيحه. فكذلك الأمر بالنسبة للاستعمار غير المباشر. والمهم في الأمر هو استثمار موارد العلم والمعرفة وتطويرهاـ بعد هذه التجاربـ لتصبح أكثر قدرة على بناء المستقبل لما فيه مصلحة الإنسان، كل انسان، فوق أرضه ووطنه. وبصورة خاصة الإنسان العربيـ الذي تجاوزت معاناته كل حدود الاحتمال.

«لقد دمرنا كثيراً، وقد يصفني البعض بأنني بربري متوحش، ولكنني أضع نفسي فوق اتهامات الصحافة، حينما أشعر أنني قمت بعمل مفيد لبلدي»

(بيجو)

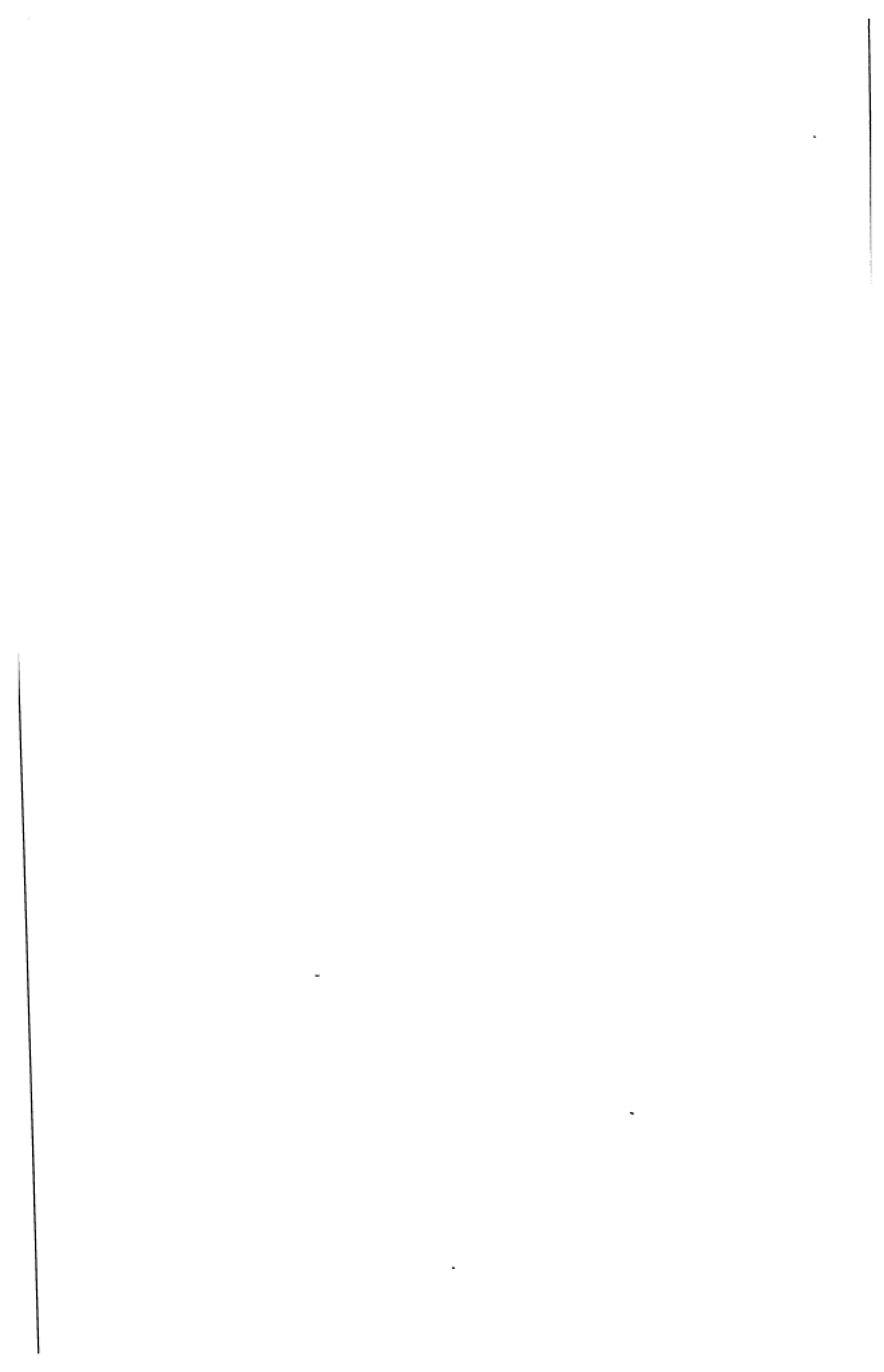
قراءات

١ـ زيارة الاسقف (دوبيش) لخليفة مليانة.

٢ـ رسالة من (بيجو) إلى بعض شيوخ القبائل وزعمائها.

٣ـ رسالة أيضاً من (بيجو) إلى بعض شيوخ القبائل وزعمائها.

٤ـ الأرتال الجهنمية ـ بيجو وحرب الابادة.



قراءات

(١)

زيارة الاسقف (دوبيش) لخليفة مليانة.

وقع عدد كبير من الفرنسيين أسرى في قبضة المسلمين الجزائريين. وكانت المراسلات متواترة بين الجنرال (بيجو) والأمير (عبد القادر) غير أن العلاقات كانت في الوقت ذاته سيئة للغاية، وفي هذا الظرف أرسل الاسقف (دوبيش) رسالة إلى خليفة الأمير بمليانة (السيد محمد بن علال) يستأذنه في الحضور عنده، ليتوسط له في الاجتماع مع الأمير. فأجابه الخليفة أن الأمير في نواحي الصحراء على مسافة أيام متعددة منا، فإن كنت تكتفي بملاقاتي نيابة عن الأمير، فأنا مستعد لقبول زيارتك، فأجاب الأسقف لذلك، وحضر عند الخليفة. فاحتفل به كما يجب، وعندما عزم الاسقف على الرجوع إلى الجزائر، قدم إليه الخليفة فرسين من جياد خيله هدية على عادة أمراء العرب مع ضيوفهم الكبار قدراً وشهرة. وكان عنده من أسرى الفرنسيين نحو خمسمائة أسير، فأحضرهم بين يدي الأسقف بسلاحهم وألبستهم، ثم قال له: «حيث أنه لم يتيسر اجتماعكم بسيدنا الأمير، وكنت أنا من جملة أتباعه وخدمه، فعلى حسب استطاعتي، أقوم

ببعض ما يجب اجراؤه مع امثالكم وهؤلاء الأسرى من عساكركم بسلاحهم وأمتعتهم، قد سمحنا باطلاق سراحهم تكرمة لكم، فخذهم معكم، ولو ساعدكم القدر، واجتمعتم بسيدنا الأمير، لشهدتم من اكرامه ما تستقلون أمامه أعمال الملوك العظام». ففرح الاسقف بذلك فرحاً شديداً ورجع بالأسرى إلى الجزائر، وكان يوم دخوله إليها يوماً مشهوداً. (*)

(*) تاريخ الجزائر- الاستاذ مجاهد مسعود ١/٣٢٤- ٣٢٥.

قراءات

(٢)

رسالة من (بيجو) إلى بعض شيوخ القبائل وزعمائها

كانت سياسة (بيجو) تعتمد قبل كل شيء على تمزيق الروابط الدينية والقبلية، والقضاء على العصبية التي هي مصدر القوة، فكتب ما يلي:

«... إلى الرؤساء من جميع الحشم والشراقة والغرابة ومن جاورهم من بني شقران وبني غدو وسواهم. إني باسم فرنسا أطلب منكم أن تنفصلوا عن الأمير وأن تتحالفوا معنا، وانكم سترون منا كل خير. وسنعاملكم معاملة أخوية، هذه نصيحتي لكم وإني في انتظار ردكم الايجابي».

وجاء رد هذه القبائل واحداً وموحداً وفيه:

«... إلى النصراني بيجو. السلام على من اتبع الهدى وثبت عليه.

قد وصلنا تحريرك، وعلمنا ما فيه من كونك تدعونا إلى الطاعة، وتخبرنا أنك عازم على أن تجعل بلادنا سعيدة مباركة، وأي سعادة أحب إلينا من سعادة الجهاد وحماية البلاد، وثباتنا أمام أعدائنا. ولو بدون محاربة ولا

طعان، فإن الله تعالى جعل لنا ثواباً عظيًما إذ نحن أذقناهم مرارة الوبال، ونكلنا بهم شديد النكال، وكبدناهم أنواع المشاق، وألجأناهم إلى التفريق والشتات. وإذا لم نتمكن من ذلك كله، فمن بعضه، فإن لم يتيسر لنا، فيكفي الثبات في وجوههم، وعلى قدر التعب يحصل الأجر. وكونك تعدنا كعادتك- وكما وعدت غيرنا بأن الفخر والمجد إذا ما نحن أطعناك وإلى مطلوبك أجبناك- فهذا ما لا نسمعه ولا نلتفت إليه، بل نعده من المخازي. واعلم أن الذين أطاعوك من أهل وطننا، فإنهم عندنا قوم لا دين لهم ولا أخلاق، بل لا يعرفون من الإسلام إلا اسمه. وإذا اغتروا بكلامكم فانما قادهم إليك الطمع فيما عندك، فباعوا دينهم بالذهب والفضة. وأما نحن، فلا نبيع ديننا. وإنما نبيع أنفسنا إلى الله تعالى يشتريها منا بالجنة. ومن الواجب عليك أن تنظر إلى عظمة الأمير، كما ننظرها نحن، فإنه يقاتلكم ويكبدكم المشاق العظيمة من غير كبير عدد ولا ذخائر مؤثلة، ولا خزائن قائمة وافرة. وأما أنتم فلا مزية لكم لأن دولتكم عمرت من ألف سنة. فجمعتم الأموال الطائلة، ودربت الجيوش الجرارة على الحروب، فإن هي غلبت الآن، فإن أميرنا حديث العهد بالملك ورعيته قد أنهكتها الحروب الأهلية والأجنبية من مدة طويلة. فأي تفوق لدولتكم في تغلبها علينا، والظاهر أنك أيها الحاكم مسرور بكونك أخرجتنا من أوطاننا، وأحرقت غلالنا وأرسلت لدولتك تبتهج بذلك، ولو كنت من أهل النظر ما ظهر هذا منك.

نعم! لو جئتنا بجيوش تعادل جيوشنا عدداً واستعداداً، وفعلت بنا ما فعلت، لكان حقاً لك أن تبتهج بعملك وتفخر به، ولكن حيث انك جلبت إلينا جيوشاً يزيد عددهم علينا، فلا حق لك في سرورك لأن من غلب بكثرة لا فخر له، وإنما الفخر لمن غلب غيره وكان لهذا الغير تعادلاً في العدد والعدة. ونحن والحمد لله مع قلة عددنا قد وقفنا في صدوركم، وأذقناكم نكال الحرب ومرارة الجلاد والضرب طوال اثني عشر عاماً، من حين استيلائكم على مدينة الجزائر إلى يومنا هذا، ولا نزال بحوله وقدرته

تعالى على ذلك إلى أن نَغْلِبْ أو نُغْلب ويهلك كبيرنا وصغيرنا. وعلى كل حال، فلا تتعب نفسك، فإنك لا تحصل على طائل من الفخر لتذكر به عند ملوك الأرض، كما هو في ظنك، إنما يصح لك لو غلبت دولة قديمة عظيمة مؤثلة من كل شيء، وأما دولة قليلة العدد والعدة، فلا فخر يناله من غلبها.

ومما يتعجب منه كل العجب أن دولتك تفتخر بالاستيلاء على الجزائر، وهل عاقل في العالم يفتخر بالظلم والاعتداء، حاشى وكلا، وإنما الفخر في تركها، واعلموا أن جميع ما أتلفتموه من محصولاتنا في هذه السنة لا يضرنا، لوجود غيرها عندنا من مستغلاتنا المدخرة من سنين عدة، فإن نفدت، فالطرق لجلب ما نقتات به من المغرب أو المشرق مفتوحة. وكما أن مراكبكم البحرية ترد عليكم مشحونة بالمؤن والذخائر، فكذلك نحن عندنا الجمال، تحمل إلينا ما نحتاج إليه من القاصية، ومن الواجب عليك أن تنظر فيما دخل في يدك من الذخائر والمؤن في هذه المدة، وما خرج منها، فإن وجدتها ناقصة فبادر إلى إرسال ما يسد نقصها من حجر (معسكر) وتراب (غريس) إلى دولتك. وبذلك تجعلك محبوباً لديها، كبيراً في عينيها، ولو أحصيت أيها الحاكم قتلاك وأسراك، ثم قابلناهم بمن قتل منا وأسر، لظهر لك خسرانك، وتحقق عندك نقصانك، والمكافأة في الحرب، وإن كانت لا تقضي بالتفوق لأحد الطرفين، فإنها تقضي لنا به، نظراً لكثرتكم وقلتنا وكبر دولتكم وصغر دولتنا.

هذا جوابنا فاعلمه فإننا فصلناه تفصيلاً مفرطاً في الاسهاب والاكثار، رجاء أن تفهم»(*).

حرر في احدى وأربعين وثمانمائة وألف.

(*) تاريخ الجزائر- مجاهد مسعود ١/٣٢٥- ٣٢٧.

قراءات

(٣)

رسالة أيضاً من (بيجو) إلى بعض شيوخ القبائل وزعمائها.

لم ييأس (بيجو) من امكان تمزيق عرب الجزائر، على الرغم من موقف معظم القبائل موقفاً سلبياً من مبادآته، فمضى في محاولاته إلى (قبائل الحشم) التي كانت من أكبر القبائل وأقواها، وكتب لها رسالة جاء فيها: «. . . إن فرنسا ستكون عند حسن ظنها بكم، ولهذا أرجوكم أن تربطوا معها علاقات طيبة، حتى تنالوا ما تصبون إليه من رخاء وازدهار- في التاسع والعشرين من ربيع الثاني- والعشرين من حزيران- يونيو- ١٨٤١».

وجاءه الرد:

«. . . إلى النصراني بيجو!

قد وصلنا كتابك الذي تركته في موضع نزولك من بساتين بني يخلف، واطلعنا عليه، فوجدناك تطلب منا ذات ما طلبته سابقاً غير مرة، فتعجبنا من إلحاحك واكثارك علينا في الطلب، مع أننا بذلنا ما في وسعنا لاقناعك،

فلم تسمع. وأوقفناك على ما انطوت عليه بواطننا من التمسك بديننا وطاعتنا للأمير فلم تفهم. ولو فهمت لعدلت عن إلحاحك وتتابع طلبك. وعلى كل حال، فهذا آخر جواب يأتيك من طرفنا. فليكن مكتوبك المذكور آخر مكتوب ترسله إلينا. وكيف نترك ديننا الذي هو أشرف الأديان، ونتخلى عن أميرنا الذي هو عندنا أعظم أمير وأشرف من يطاع؟.. إن ادعاءك لا يقول به عاقل، ولا يعلق به أفكاره آمل. والذي حملك على الإلحاح هو تصديقك لأولئك المتنصرين الذين أسرعوا إلى الدخول في طاعتك، ولو كانوا مما يعتد به في الديانة، ما جحدوا نعمة الله عليهم بالاسلام، وأطاعوك ودخلوا تحت رايتك وأنت عدو دينهم ودنياهم، والذي أخذ بنواصيهم وقادهم إلى ذلك، إنما هو حب المال الذي يسرتم لهم الطمع فيه حتى تركوا دينهم ورفضوا طاعة أميرهم. كذلك يتركون دينكم وطاعتكم لأن من كان هذا شأنه لا يوثق به، وأنت لغرورك بهم وثقت بحالهم، واتبعت اشارتهم وآراءهم.

جملة القول: إننا في وطن واسع الأطراف، ممتد السعة، لا نزال ننتقل فيه غرباً وشرقاً وجنوباً وشمالاً، وأنتم تتبعون آثارنا فلا تدركون شأونا، وغاية ما هنالك أن عساكركم تفنى جوعاً ومرضاً، وذخائركم تنفد، وكل ذلك من غير طائل. **فالأولى لكم أن تعمروا بلادكم التي نشأتم فيها منذ أجيال. وأما بلادنا فليس لكم في الاستيلاء عليها بالقوة، وهب أنكم استوليتم عليها، وأقمتم فيها ثلثمائة سنة مثل الاتراك الذين ملكوها قبلكم، فانكم لا بد أن تخرجوا منها كما خرجوا وتمسون كأمس الذاهب.** والدهر هكذا وعاظ وناهب، والظاهر أنه يخطر في بالكم أنكم إذا استوليت على وطننا، تجعلك فرنسا ملكاً تدين بطاعتك، فهيهات إنما أنت عسكرياً، تعيش عسكرياً وتموت عسكرياً. ولن تستفيد شيئاً، ولن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً. والذين استهووك من العرب وغروك بطاعتهم، لا يعبأ بهم إذا حضروا ولا يسأل عنهم إذا غابوا، فأقوالهم ومواعيدهم إنما هي كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده

شيئاً، وغاية أمرهم أن الذي يأملونه منكم لا يصلون إليه. وإنما يموتون كفاراً تحت رايتكم، فنسأل الله العافية والحماية من ذلك.

ومن العجب أنكم تعلمون أننا كنا خاضعين لأميرنا، وأننا ما طلبنا الصلح معكم إلا قهراً وامتثالاً لأمره، فكيف الآن نميل إليكم ونرغب في طاعتكم. ثم لا يخفى أن بلادنا تمتد غرباً إلى حدود المغرب الأقصى، وشرقاً إلى حدود أفريقية، وشمالاً وجنوباً من البحر إلى القفر، وجميعها مع اتساع أقطارها في غاية الأمن بالنسبة إلينا، فلا تظنوا أنه يلحقنا ضرر منكم أو يرهبنا وضع عسكركم في (معسكر) و(مليانة) و(المدية) فإن الضرر والخسارة وأمثالها في الحقيقة لا تعود إلا على أولئك الجنود الذين لا نراهم إلا أسرى في بلادنا إذ لا يأتيهم ما يقتاتون به إلا بمشاق وتعب. وملخص ما نقول:

إننا وإياكم عبيد الله تعالى، والأرض أرضه، والبلاد بلاده، وهو الذي وطن فيها آباءنا، فإن أبقانا فيها فله الفضل والطول، وإن أخرجنا منها وجعلها في ملككم وقبضة تصرفكم فهو مختار في فعله، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد»(*).

(*) تاريخ الجزائر ـ الاستاذ مجاهد مسعود ١/ ٣٢٧ـ ٣٢٨.

قراءات

(٤)

الأرتال الجهنمية- بيجو وحرب الإبادة.

نظم (بيجو) ما أصبح معروفاً باســم (الارتال الجهنمية) والتي كان من واجبها زرع الموت والدمار حيث تسير. وقاد (بيجو) بدايات هذه العمليات ليعطي النموذج لقادته وضباطه وجنوده. فكـانت (أعمال الإبادة) الشهيرة في (جبال الظهرة) و(وادي الشلف). وطبقاً لأوامر (بيجو) فقد كان عجز قبيلة عن دفع الضرائب الفادحة المفروضة عليها -غرامات الحرب- كافياً لكي تعتبر ثائرة، ولكي تتعرض ديارها للتدمير، ومزارعها للحرق، وأموالها للنهب. وكذلك كانت الحياة الإنسانية في نطاق سياسة (الأرض المحروقة) التي فرضها (بيجو) شيئاً لا قيمة له في الاعتبار. ومما حفظه التاريخ أعمال فيالق (سانت آرنو) و(لادميرو) و(بيليسي) التي سارت إلى (أولاد رياح) الذين كانوا متحصنين في جبالهم المنيعة، والتي كانت تحتوي على (كهوف- في مكان يسمى القنطرة) وهو عبارة عن مرتفع يجمع بين تلين يقعان على ضفاف (وادي فرشيش) وعندما شعرت القبيلة باقتراب الفرنسيين، وضع رجالها نساءهم وأطفالهم في الكهوف، وساروا إلى جبهة القتال لمواجهة العدو الزاحف. ولما أحاطت القوات الفرنسية

بالمنطقة، احتمى معظم المجاهدين بالكهوف التي تسمى (ظهر الفرشيش) بينما سار (٦٠) منهم لمقابلة العدو في المعركة. وقد اضطر المهاجمون إلى الهرب منذ بداية المعركة. غير أن الجيش الفرنسي تمكن من اعادة تنظيم قواته، واستئناف الهجوم مما أرغم رجال المقاومة العرب على الانسحاب، والاحتماء مع اخوانهم في الكهوف. ولم يكن لهذه الكهوف سوى مدخلين، يقع أحدهما فوق الآخر، ويؤدي إليهما ممر صاعد. ولما اقترب الجيش الفرنسي من الكهوف، تلقى أوامر باقتحام الممر والوصول إلى أقرب نقطة ممكنة من الكهوف.

كانت المسألة مسألة موت أو حياة بالنسبة إلى المجاهدين، ولذلك فقد قاتلوا قتال الأبطال في الدفاع عن نسائهم وأبنائهم، حتى نفد ما لديهم من الذخيرة. وقد كان بالمستطاع محاصرة القبيلة حتى ينفد زادها وتنهك قوتها وتستسلم من تلقاء نفسها، ولكن الفرنسيين صعدوا إلى أعالي القنطرة، وجمعوا أكواماً من الحطب والهشيم وضعوها عند مدخل الكهوف وأشعلوا النار فيها، وجاءت الريح فحملت اللهيب والدخان إلى داخل الكهوف، وفي الوقت ذاته راح الجنود في نوبة من الحماسة الاجرامية يغذون النار بالمزيد من الحطب والهشيم. فاستمرت النار تشتعل من الظهر حتى صباح اليوم التالي. وانحصرت مهمة الضباط والجنود بعد ذلك في احصاء عدد جثث النساء والأطفال والرجال من أفراد (القبيلة الشهيدة) والتي بلغت (٦٠٠) جثة[*]. ولقد أثارت هذه الفظائع البربرية حتى أولئك الذين شاركوا فيها أو أمروا بتنفيذها ـ مثل القائد الفرنسي ـ الكونت هيربسيون الذي قال: «فظائع لا مثيل لها، أوامر بالشنق تصدر عن نفوس كالصخر، يقوم بتنفيذها جلادون قلوبهم كالحجر، بالرمي بالرصاص أحياناً، وباستعمال السيف أحياناً أخرى في أناس مساكين كل ذنبهم أنهم لا يستطيعون إرشادنا إلى ما نطلب منهم أن يرشدونا إليه. ومع ذلك، فإن

(*) المقاومة الجزائرية ـ اسماعيل العربي ـ ص ٢٨٥ ـ ٢٨٦.

الميل إلى سفك الدماء، وحب التعذيب بازهاق الأرواح جملة، وبإبادة القرى والقبائل، واحراق البيوت والتمثيل بالموتى، والاجهاز على الجرحى، والفتك بالأطفال والشيوخ والنساء، والاتجار بأعضائهم المبتورة، وحليهم ومتاعهم الغارق في دمائهم، هذا الميل لم يجد في كل الذي رويت لك طرفاً منه- ما يشبعه أو يرضيه- فأخذ الفرنسيون يتفننون في ابتكار وسائل أخرى لم يسمع بها تاريخ البشرية على كثرة ما حفل به هذا التاريخ من الفضائح والآثام. فهدتهم أخيراً غريزة التدمير والتخريب النامية عندهم إلى طريقة أسموها أنفسهم (بجهنم). وتتلخص هذه الطريقة بأن يسد الجنود الفرنسيون باب الكهف أو المغارة التي يلجأ إليها الجزائريون بنسائهم وأطفالهم ومواشيهم فراراً من الموت والقتل والاحراق، ثم يشعلوا في بابها ناراً حامية، فيختنق القطيع البشري داخل المغارة مع قطعان الماشية التي صاحبته إلى جوفها. فإذا انبلج نور الصباح ذهب الفرنسيون ليروا آثار ما عملته أيديهم. وإليك وصف ما رأوه في أحد الكهوف: **انتشرت في مدخل الكهف هياكل الثيران والحمير والخرفان، وقد حدت بها الغريزة صوب مخرج الكهف بحثاً عن الهواء الذي انعدم في الداخل. وتكدست بين هذه الحيوانات ومن تحتها جثث رجال ونساء وأطفال. وشوهد رجل ميت وهو جاث على ركبتيه، وقد أمسكت يداه قرن ثور محترق وبجواره امرأة ميتة تحتضن بين ذراعيها طفلها الميت، مما يدل على أن هذا الرجل قد اختنق وهو يدافع عن امرأته وطفله اللذين اختنقا أيضاً اثر هجوم الثور عليهما(*).**

وجاء في أحد التقارير الرسمية الفرنسية: «بناء على تعليمات القيادة الفرنسية، خرجت قوة من الجنود في المدينة وانقضت قبل الفجر على أفراد القبيلة، وهم نيام تحت خيامهم، فذبحتهم جميعاً دون أن يستطيع أحد الدفاع عن نفسه. وقد لقي الجميع حتفهم بغير تمييز بين رجل وامرأة. وقد

(*) تاريخ الجزائر- الاستاذ مجاهد مسعود- ١/ ٣٣٩- ٣٤١

عاد الفرنسيون من هذه الحملة وهم يحملون رؤوس القتلى على أسنة الرماح».

وجاء في تقرير رسمي: «لقد بيعت كل الماشية إلى قنصل الدانمارك، وعرض باقي الغنيمة في سوق (باب عزون) في عاصمة الجزائر ذاتها، ووزع ثمنها على ذابحي أصحابها. وفي ليل ذلك اليوم أصدر البوليس أوامره إلى أهل المدينة بإضاءة الأنوار في حوانيتهم علامة على الابتهاج».

وجاء في تقرير كتبته احدى اللجان الرسمية الفرنسية: «. . . لقد ذبحنا اناساً كانوا يحملون اجازات بالتنقل، وقضينا على مناطق بأكملها اتضح فيها بعد أن ضحايانا فيها أبرياء. رجال عرفوا بالقداسة بين عشيرتهم، وآخرون لا تنقصهم صفة الاحترام بين ذوي قرابتهم، لمجرد أنهم مثلوا أمامنا سائلين الرحمة بزملائهم. وقد وجدنا قضاة ليحكموا عليهم. ورجالاً متمرنين ليشنقوهم».

وكتب الماريشال (سانت آرنو) إلى أهله يقول: «. . . إن بلاد بني منصر بديعة، وهي من أجمل ما رأيت في أفريقيا، فقراها متقاربة، وأهلها متحابون. لقد أحرقنا فيها كل شيء ودمرنا كل شيء. . . إني افكر فيكم جميعاً وأكتب إليكم، ويحيط بي أفق من النيران والدخان. لقد ذهبت إلى أفراد قبيلة البراز، فأحرقتهم جميعاً ونشرت حولهم الخراب، وأنا الآن عند السنجاد، أعيد فيهم الشيء ذاته ولكن على نطاق أوسع. . .».

وكتب (موتنياك) في كتاب له أسماه: (رسائل جندي) يقول: «لقد كانت مذبحة شنيعة حقاً، كانت المساكن والخيام في الميادين والشوارع والأفنية التي انتثرت عليها الجثث في كل مكان. وقد أحصينا في جو هادىء بعد الاستيلاء على المدينة عدد القتلى من النساء والأطفال، فألفيناهم ألفين وثلثمائة. أما عدد الجرحى، فلا يكاد يذكر لسبب يسير هو أننا لم نكن نترك جرحاهم على قيد الحياة».

تلك هي (مدرسة بيجو) وهي مدرسة لن ينساها التاريخ، وستبقى دروسها ماثلة أمام الأجيال.

المراجع الرئيسية للبحث

١ـ المقاومة الجزائرية ـ اسماعيل العربي ـ الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ـ الجزائر.

٢ـ تاريخ الجزائر ـ الاستاذ مجاهد مسعود ـ الجزء الأول ـ الجزائر.

٣ـ الثورة الجزائرية ـ أحمد الخطيب ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ أيار (مايو) ١٩٥٨.

٤ ـ حياة الأمير عبد القادر ـ تأليف شارل هنري تشرشل ـ ترجمة وتقديم الدكتور أبو القاسم سعد الله ـ الدار التونسية للنشر، تونس. ١٩٧٤

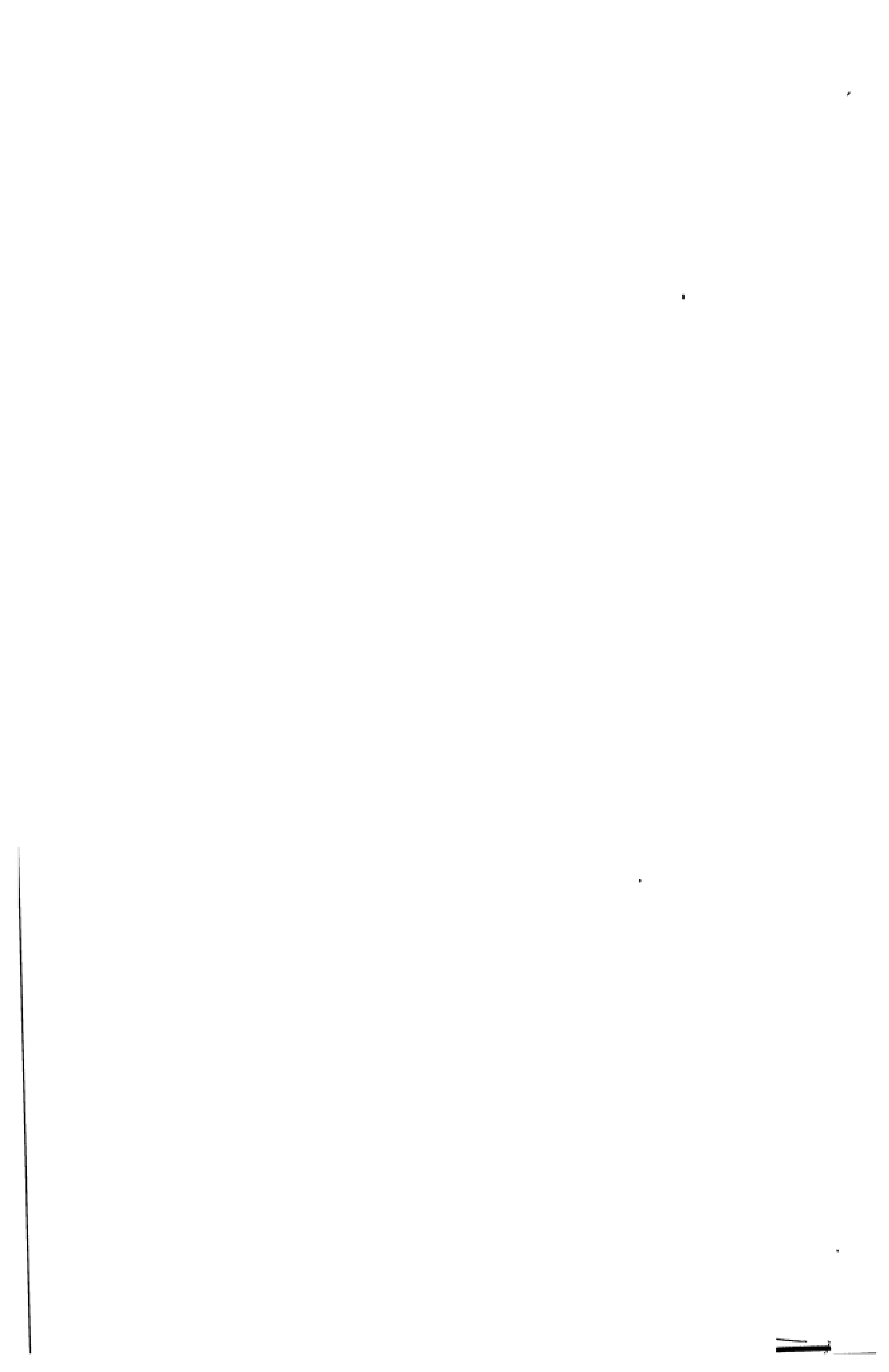
٥ـ الأمير عبد القادر (سلسلة الفن والثقافة) اصدار وزارة الاعلام والثقافة الجزائرية. طبع مدريد ـ أيار (مايو) ١٩٧٤.

٦ـ تاريخ الجزائر الحديث (بداية الاحتلال) الدكتور أبو القاسم سعد الله ـ معهد البحوث والدراسات العربية ـ جامعة الدول العربية ١٩٧٠.

7 - L'AFRIQUE DU NORD (JEAN DESPOIS) PRESSE UNIVERSITIARES DE FRANCE - PARIS - 1964.

8 - LA RESISTANCE ARMEE ALGERIENNE 1830 - 1920 (ETUDE DOCUMENTAIRE) MINISTRE DE LA DEFENSE NATIONALE - ALGER 1974

9 - POLITIQUES COLONIALES AU MAGHREB. (CHARLES - ROBERT - AGERON) PRESSE UNIVERSITAIRES DE FRANCE – PARIS 1972.



محتويات الكتاب

صدر للمؤلف عن

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

المؤسّسة
العربيّة
للدراسات
والنشر

أ ـ مجموعة مشاهير قادة العالم:

١ ـ الاسكندر المقدوني.
٢ ـ هانيبال (هاني بعل).
٣ ـ يوليوس قيصر.
٤ ـ مار لبورو.
٥ـ فريدريك الكبير.
٦ـ بطرس الأكبر.
٧ـ جورج واشنطن.
٨ـ نابليون بونابرت.
٩ـ كوتوزوف.
١٠ ـ نيلسون.
١١ ـ فون مولتكه.

ب ـ الحرب والحضارة.

ج ـ مذكرات ليدل هارت (مترجم ومقدم له)
(تحت الطبع).

د ـ الحرب المباغتة، والمباغتة في الحروب العربية الاسرائيلية (مترجم ومقدم له).



لقد درجت هذه المجموعة (من مشاهير قادة العالم) على اختيار القادة، ممن كان لهم دورهم الحاسم لا في حياة شعوبهم فقط، وإنما في التأثير على تيار التاريخ أيضاً، وقد كان للماريشال (بيجو) من هذه الناحية دوره في التأثير على حياة شعبه وترك بصماته القوية على (تاريخ الاستعمار). ولقد تميز القادة الذين تم اختيارهم بالتأثير على (فن الحرب) وتطوره، وقد كان (للماريشال بيجو) دوره في التأثير على فن الحرب، وعلى طرائق القتال ضد (الحروب الثورية) وأساليبها. وانطلاقاً من هذه الحقائق فلا يمكن اعتبار (بيجو) غريباً على (مشاهير قادة العالم) أو دخيلاً عليها. وبالاضافة إلى ذلك، فان اختيار (بيجو) ليكون في المجموعة يحقق هدفاً اضافياً، هو التعلم من (التجربة الذاتية) التي عاشها العالم العربي ـ الاسلامي، والتي لا يزال يعيشها بكل ابعادها وبكل ضراوتها ووحشيتها، وهذا مما يزيد من أهمية (التعلم من التجربة التاريخية).

الثمن ١١ ل.ل.

أو ما يعادلها